بعد فورانِ الحُمَمْ

د. إيهاب سلام

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

(١)

كل شيء الآن فى ذهنى حاضر .. أتتبع الصور واحدة بعد أخرى فى هـدوء ورتابة وأقول لنفسى :

ماذا تفعل نملة اذا سحقها حذاء جلدئ متين ؟ .. وماذا يضير النملة بعد سحقها ؟ . هأنذا ولدت مطحونا ، وسأموت دون أن يحس بى أحـد . أنزل من الجحيم التى أستقر فيهـا ، وأمضى الى المصنع . أمل كاذب رسـمته الشيطانة . اذا كان الشيطان يمكن أن يؤنث .

ــ أهلا برهومة الكبير .

ــ أهلا برهومة الصغير .

لا يزال أخى الكبير . نسب لا يمكن أن أفلت منه . رغم أنه لص . سرق مغلق أخشاب أبى ، واقتهز فرصة اننى أصغر الأبناء ، وأن بينى وبينه أفراخا من النساء الضعيفات . وحينما شببنا قال لنا : مزقوا مستنداتكم ، أنا الحاكم بأمره !

يبدو أنك تسر فى نفسك الآن وتقول :

أتريد أن تنافسنى يا برهومة الصغير ؟ لقد انتهى أمرك . وأصبحت راسب بكالوريا .. واشتغلت كاتبـا بالجامعة . وتعمل الآن موظفا ، وتريد أن تفتح لك مصنعا .. يا زوج الخائنـة .

ــ طيب . سـلام يا زكريا .

ــ مع السـلامة يا يحيى .

زكريا ويحيى أخوان .. ولكنهما غير متحابين . هكـذا يعرف كل الناس . ولا يعرفون أن زكريا نهب أموال يحيى اليتيم ، وأموال أخواته البنات . وكانت رحمة منه أن أعطى يحيى شقة فى عمارتنا المتهالكة فى الدور الثالث . وهو تربع على القمة فى الدور الرابع ، والبنتان الوسطيان فى الدور الأول والثانى .. أما الثالثة فقد جهزها وجعلها تعيش فى بيت آل زوجها ، ولو أنها استقلت الآن .. ما علينا .. هو الذى بدأ فى طحنى ، وتمكن . ولو أن المرأة الداهية تزن فى هذه الأمور. لا تزال تجتر المـاضى ! نحلة تهوى الطنين ! ماذا أفعل ؟

ــ أهلا .. حاج حميده .
ــ أهلا .. يا أستاذ يحيى .. كيف حالك ؟
ــ الحمد لله .
ــ تفضـل ..
ــ لا .. أنا ذاهب فى مشـوار هام .
ــ مع السـلامة .
ــ الله يسلمك .

معارفى كثيرون .. نصف سكان الجيزة أعرفهم ، وأغلب سكان شـارع سعد زغلول لا أتوه عن قصصهم وحكاياتهم. ولكن أختزنها فى صـدرى ، ولأنى قليل الكلام ، أرددهـا بينى وبين نفسى . مثلا الحـاج حميدة الشبطى .. من عائلة

الشبطى ، فرع العائلة الكبير الذى اختص بتجـارة البويات وأدوات البنـاء المختلفة . ولم يتوقف عند ذلك ، انما يبيع المسامير بأنواعها وغيرها من الأدوات اللازمة للكهربائيين . أراد أن يشاركك يوما فى تجارته حين بدأ يفلت من قبضة أبيه . لكنك رفضت . أمدته أمه برأس المـال ، أما أنت فلم يكن معك شىء . قلت ان هذه ليست طريقك . ولو كنت اقترضت . ولو حتى من هذا المـأفون زكريا برهومة الكبير ، لكنت الآن شريكا فى تجارة رابحـة . أنت يا حميدة أفلت من قبضة أبيك وهو حى . أما أنا فتركنى أبى فى قبضة كافر وهو ميت . لكن لا شك أن فروع عائلة الشبطى كلها ماهرة .. الحديد فى يدها يتحول الى ذهب ، فيما عدا ضابط الشرطة .. أقصـد اللواء المتقاعد عادل الشبطى .. لا داعى لذكره .. أريد أن أنساه وأفقد الذاكرة ازاء أفعاله السوداء .

شارع لا ينتهى .. كأنما هو طويل مثل عمر صاحبه ! ألم يعش سعد زغلول بعد السبعين ! وكأنما اختاروا شارعا واحدا فى الجيزة لتكون قامته مديدة مثل سعد زغلول ، ولكن لم يعتن به أحد من المحافظين ، كأنما بينهم وبين الاسم عداء مستحكم . ملىء بالحفر ، وأسفلته متهرىء ، والميـاه ترتع فى كل حفرة فيه . وما أدرانا ما يحدث له فى الشتاء ! الحمـد لله أننـا فى الصيف .

– أهلا يا حاج عبد الواحد .

ـ أهلا أستاذ يحيى •

ـ كيف حال عفاف ؟

ـ بخير والحمد لله •

ـ وكيف حال حفيدى ؟

ـ كالقمر المنور • مثل جده • عينان زرقاوان • ووجه أبيض أملس • وشـعر أصفر •

ـ وشفتان واسـعتان •

تضحك يا حاج • ليس للمقهورين غير الضحك • أنت مقهور فى تجارتك • لا تفارق مخزن غلالك • وأنا لا أفارق جحيمى • أنت سجين الوحـدة لا أنيس لك ونادرا ما يأتى المهندس صفوت ليشاركك فى العمل • كان وهو طفل وهو صبى وهو شـاب يجرى متلهفا لمساعدتك • أما بعد الهندسه فقد اختفى • وبعد أن تزوج عفافا ، واصل اختفاءه • وبعد أن رزق بتامر ، لم تعد تسمع صوته • سكن هو وزوجته جنتهما، ومعهما العفريت الصغير ثم توالت الذرية •

لعلك الآن تقول لنفسك :

« أنت مثلى يا يحيى • ترى أتدرك ذلك ، رغم أننى أكبر منك وأشيب منك ؟ لكن وضعك فى الحيـاة لا يفترق عن وضعى •• رجل طيب يسـير بجوار الحائط يروم السلامة »•

ـ سـلام ••

ـ سلام .. دعنا نراك .
ـ باذن الله .

الأصوات تملأ الشارع .. وتنسكب من داخلى ـ أليس لها من آخر ؟ فى كل ركن مقهى .. وكل مقهى له مذياع .. والمذياع يصرخ .. انه لا ينقل الأصوات بهدوء وصداها ثور يخور ، أو لعل المذياع مجند فى معركة حربية يحرض الجنود على الانتباه ! ألا يدركون أن الناس فى حالة حزن . وأن أبناء أو أخوة أو آباء قد انتهى دورهم فى الحياة بفضل هذه الحرب الملعونة ، وأن أقرباءهم حزانى يريدون الصمت سلوى . لو كان الأمر فى يدى ، لقمت بتكسير هذه الآلات الصاخبة .

ـ أهلا .. أهلا . لطفى أفندى .
ـ كيف الحال يا يحيى بك ؟
ـ دوام الحال من المحال . ولعلك لا زلت تسير فى الطريق البطيئة بخطوات متمهلة .
ـ أنت تتهمنى دائما بالبطء .. مع أنى أحاول الاتقان !
ـ أتقصد أنك كرجال العدالة يبتغون العدل ولو جاء ببطء ؟
ـ ماذا أصنع ؟ هل أجعل البنطلون واسعا عليك فتغضب أو ضيقا عليك فتلعننى !
ـ لا لعنة ولا غضب .. أرجوك تنتهى منه .

لطفى الترزى — رجل عادى ولو أن له قصة غير عادية .
ما رأيك يا يحيى أن تكتب قصص شارع سعد زغلول ما دمت عارفا بكل واحدة منها ؟

كان معى بالابتـدائى ، فكيف لا أذكـر قصـته ؟ ويوم زف الى المرأة المجنونة سميرة الجزار طمعا فى مالها ، فسـاقت عليه الهبل على الشيطنة حتى استجار منها وتركها دون مليم وترك فى أحشائها فؤاد لطفى . مجنون مثلها . حصـل على التوجيهية بالكاد . والتحق كاتبا باحدى المصالح الحكومية ، حتى غشيه الجنون بعنف ، فألقى باستقالته فى وجه المدير ، فقبلها . وأخذ يجوب الشوارع بلا هدى ويعود الى دار أمه ، يضربها ، ويطلب منها نقودا ، فلا تبخل عليه . وأرسلت الى والده أن يتشفع لدى المدير أن يرجع فى قبول الاستقالة فرجع وأحيل الفتى الى القومسـيون الطبى وتقرر أنه مجنون .. مجنون .. مجنون .. يا ولدى .

— سأعطيك مهلة يومين .. وبعد ذلك أسترد البنطلون أيا كان شكله .

—وهو كذلك يا يحيى بك .

الأمض اذن فى الثغرات والنتوءات .. أفضـل أن أسـير الى ميدان الجيزة حتى أدخل آمنا فى أتوبيس ١٠٧ المتجه الى المنيب من أن أسير فى شارع المحطة . وعند أم المصريين أعجز عن

الدخول فى الأتوبيس بسبب الزحـام • كأن الناس ينتظرون موعد ذهابى الى المصنع فيتكدسون فى السيارة العمومية •

— أهلا يا عم شعبان ••

— أهلا يحيى بك •

— كيف الحال ؟ وحال القضية مع اخوتك ؟

— لا تزال القضية منظورة •• تركة وتتوزع على مهلها•

— كنت قد قفلت المحل •• أياما •

— عدم ثقة •• وأخيرا اقتنعوا بأنى لا أسرقهم •• فوافقوا على فتحـه • انه لا شك مصدر ايراد لا بأس به •

— ربنا يباركك ويبارك لك ••

— شكرا يا يحيى بك •

أصدقائى كثيرون • أذلك راجع الى الطيبة التى ترتسم على وجهى ؟ أم لأنى أعامل الناس معاملة حسنة ؟ ليس على لســانى شتائم ولا كلمات فجة مثلما ينطق زكريا ذلك الأفاق تربى فى الشوارع • لا ، لم يربه نظمى برهومة ، والدنا العزيز لقد ربته الحــوارى والأزقة • فيعامل عماله بألفاظ نابيــة ، ولا ينطق الا بالســوء ، مع أن لديه أكمل وأحلى عروس يمكن أن تشهدها عين • زينات •• أتحبها لأن بها شبها منك ؟ الوجه البيضاوى الأبيض ، والشفتان الواســعتان المليئتان • لكن عيناها غير زرقاوين ، ولا شعرها الأسود بنى مثل شعرى •

رحمة الله عليك يا دكتور رمزى .. انتحــرت من فوق هذا البيت . كنت أول دفعتنا ، وتزاحمت عليك الديون دون سبب . هــذه الصيدلية الخربة أجهزت عليك ، مع أنى لم أجد صيدليا مفلســا . لكن الكيف هدمك . وباع الورثة الصيدلية بأبخس الأثمان . التقطها هــذا الأفاق ــ أنت لا تنطق العيب يا يحيى ــ ولكنه أفاق ، نهب مالا من شركته ثم استقال ، وفتح مطعما مصيره باذن الله الخراب .

لأنتظر السيد « مائة وسبعة » حتى يشرف .. يبدو أن السيارات الخاصة ليست من طباعنــا . حتى زكريا ــ الأخ العاق ــ لم يشتر سيارة . وكيف يدخل بها في هذا الشارع الطويل الضيق شارع سعد زغلول ؟!

ــ أهلا .. كيف حالك يا عم مالك ؟
ــ أهلا .. أستاذ يحيى .
ــ لمأرك منذ زمن .
ــ أنا أعيش الآن فى بنى سويف .
ــ كيف ؟
ــ مدرس .
ــ وتذهب وتجىء كل يوم ؟
ــ لا .. نأتى فقط فى بعض أيام الخميس والجمعة .
ــ وأين تقضى هذين اليومين ؟

ـ فى بيت زوجى •• فقد ورثت ايجاره عن المرحـوم والدهـا ••ووزعت الحجرات الواسعة لكل بنت حجرة •

(أتراني أبتسم • انى ابتسم على مضض) •

ـ وهل أنجبت ؟

ـ ولدين •

ـ مدهش •• أصبح لك الآن خمسة أولاد •

ـ لكن يعيش فى كنفى الولدان فقط •

ـ أنا أعرف •

ـ وأين تنزل ؟

ـ شارع المحطة •

ـ لولا أننى لست ذاهبـا الى البيت لطلبت منك أن تأتى معى •

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى مصنع صغير •• هكذا على قدى •

ـ ربنـا يبارك لك •

ـ سـأنزل هنا •

ـ مع السـلامة •

ـ مع ألف سلامة • دعنا تتقابل يا مالك •

أخوه الأكبر صديقى ، أما أخوه الأوسط فهو عديلى • وطليقة مالك هى أس فساد الشيطانة الراقدة فى البيت •• وحينما تزوج للمرة الثانية قرر أن زوجه منكسرة الجناح • واتضح

أنه هو الذى انكسر جناحه . ضعيف أمام النســاء . لا يفترق عنى فى شىء . نسخة مكررة . واحدة ظهرت نسخة منها فى عائلة برهومة ، وأخــرى فى عائلة المناديلى . مالك المناديلى مدرس وأحد المتفوقين على جيله ، دخل الزراعة ، وتخرج ، وعمل مدرســا بالمدارس الزراعية .. ســطع نجمه يوماً حتى كان مديرا لمكتب الوزير . وأفل فجــأة ، فأطيح به فى قنــا ، وفى نفس الوقت طلق زوجــه الســابقة . ومن كان يصــدق أن قريبين يفترقان ، .. وهــل ما فعلتــه زوجه قليــل ؟ .. ان ســبب أفول نجمــه هــو طيبتــه . لمــاذا لم يأفل نجمك أنت ؟ ولم يتم الطــلاق بينك وبين الشــيطانة ؟ يبــدو أنك « خيخــة » مثلما قال عبد العزيز محمد لـ « سى عمر » نجيب الريحــانى .

لأمض الآن فى طرق ســاقية مكى الترابية . ولا ألف سنة حتى يبلغ الأسفلت هــذه المناطق . ها هى ذى مداخن مصانع الطوب تظهر مواقد ينفث فيها الجشع دخانه ، ولكن النــاس يعملون . والمقاولون ينهبون عرقهم . وها هو ذا المصنع الصغير يلوح أمام عينى مهللا كأنه كلب أجرب يرحب بصاحبه .. أعتقد أننى لن أفكر يوما أن أسعى الى حميده الشبطى ليضرب وجه هــذا المصنع باللون الأبيض .

ــ أهلا سعيد .

ــ أهلا أستاذ يحيى .

ـ متى جئت ؟

لأتناول السيجارة التى مدها لى • وهو يدخن أخرى ـ كيف لا أتوقف عنها وهى مصدر تعب لصدرى !؟ عادة تملكتنى علمتنى اياها الشيطانة ، وكانت قد أتقنت التدريب عليها بواسطة طليقة مالك المناديلى •

ها هو العامل المفصول جلال الوشيمى •

ـ ماذا جاء بك يا ترى ؟

ـ أريد عرقى •

لأنظر الى سعيد السعيد ليتكلم نيابة عنى •

ـ ليس لك حق •

(يقولها سعيد بقوة • ترش نارا على الحمم التى فى صدرى) •

ـ حتما ولابد •• أن آخذ حقى •

ـ أنسيت ما فعلته ؟

ـ أنا لم أفعل شيئا •

ـ يا أخى ••

يهز رأسه أمامه مستهزئا :

ـ وهذه البضاعة التى أتلفتها بأفعالك الصبيانية •

ـ لا تتكلم معى أنت • أنا أتكلم مع صاحب المصنع •

فلأقلها ببرود : أنا لست صاحب المصنع •

ولأضيف ببرود أكثر : صاحبته الهانم •• اذهب اليها ••

كانت أمك تقول عنك أن تدفق الدم فى وجهك يفضح باطنك وأتنى أضع الثلوج على أعصابى حتى لا تفلت الحمم التى فى صدرى • لم لا تريد لها أن تنطلق ؟ حوادث كثيرة كبت فيها الحمم وكان نصيبك مأساة ، غير أنك مستمر فى هذه الطريقة تضغط على الحمم بالثلوج ، وتتحمل فى النهاية عاقبة ما يحدث •

آه •• الملعون ضربنى بهذه الحديدة القاتلة • أمسكها على عجل دون انتباه منى •• أنا أترنح •

(٢)

الغيبوبة تأخذنى واليقظة تشدنى •• تتقاذفنى أمواج شديدة • أذهب وأجىء مع مد وجزر الغيبوبة •• أتقلب على الجمر ولا هدنة بينى وبين الألم •

أين أنا ؟ •• لأفتح عينى وأرى وأشاهد •• هذه حائط كالحة لمستشفى •• ولكنى فى حجرة واحدة • يبدو أن هذه الحجرة الضيقة خصصت من أجلى •

ها هو الباب يفتح •• تدخل نازك •• ها هى تندفع نحوى •• تطبع القبلة الباردة على الضمادات •• وأين خدى يا امرأة ؟ •• لقد ضاع الود بيننا منذ زمن بعيد •• زمن ليس له حساب •

ـ حمدا لله على السلامة يا يحيى •

ـ الله يسلمك •

تنطق العبارة ببرود . لعلها الآن تقول : « ما زلت باردا حتى وأنت مسفوح الدم . ما هذا الثلج ؟ ما هذا الهدوء ؟ ما هذا ؟ أنا لا أتحمل . أأبقى يا ربى سجينة جبل من الثلوج هــذه السنين الطويلة ؟ لم غدرت بى يا عادل وتركتنى أعيش هذه العيشــة ؟ » .

ـ كيف حال الأولاد ؟

ـ كانوا يريدون أن يأتوا . جئنا من قبل .. كلنا .. ولكنك كنت فى غيبوبة .

ـ والمجرم ماذا فعلتم به ؟

ـ سلمه سعيد للشرطة . يحققون معــه .. قد يأتون ليأخذوا أقوالك ولكن سعيد شــهد شهادة طيبة تؤكد جرمه.

ـ والله .. أنا لم أكن أريد أن تصل الأمور الى الشرطة لقد خدمنا جلال الوشيمى كثيراً ، ولكنه متهور .

ـ الطيبة لا تنفع مع المجرمين يا يحيى .

لعلك تقولين الآن : « لا تقولى له طيبة قولى له : عبط وبله . أبهذه السرعة يريد أن يســامح الرجل ؟ من أى عجينة خلق هــذا الرجل ؟ » .

قد يكون هذا ضعفا منى يا نازك .. لكنى أسامح .. أتذكرين يوم أن سامحتك ؟ لقد طعنتنى فى شرفى . ونسبت الى بنتا ، غير أنى سامحتك . وطهرت شرفى بخضوعك رغم لسانك

معى واذا بنـا نفاجأ بألواح لطزانه كانت قد وصلت الى من الجمرك قد اختفت •

ــ هل أبلغت الشرطة يا معلم ؟

ــ هــذا ما منعنى أن أحضر اليك •

نازك تقول :

ــ ما هذه المصائب التى تحدق بنـا ؟

(٣)

ها هو صفوان المناديلى يدخل • أخـو توفيق المناديلى عديلى • ومالك المنـاديلى طليق المحرضـة على الخيـانة • يبدو أن النـاس سمعت بالحادثة ، فجاءوا يسعون يواسـون المصـاب •

ــ كيف حالك ياصفوان ؟

ينادينى بصوت خفيض :

ــ ماذ حدث يا يحيى ؟

لابد أن أتكلم معه بصوت مرتفع • انه أصم أو أشـبه بالأصـم •

ــ مصيبة من مصائب الدهر •

بصوته الخفيض يقول :

ــ قلبى معك •

وبنفس الصوت الصارخ أسأل :

ــ كيف حال أولادك ؟

ــ بخير •

ـ وكم يوما رقدت فى هذا الفراش ؟
نازك تتكلم :
ـ هـذا يومك الثالث .
ـ أمعقول هذا ؟ . أغيب عن الدنيا ثلاثة أيام .
سـعيد يرد :

ـ يكفى ما نزفته من الدم .. يكاد يملأ دلوا كبيرا .
(أمعقول هـذا الذى حـدث ؟ اذن فقد كان الجـرح غـائرا) .

ها هو أخى زكريا يدخل ، يضمنى اليه كأنما يعزينى فى مصـابى .

ـ قلبى معك يا يحيى .
ـ أحداث لابد منها . الانسـان لا يعرف الانسـان الا من سلوكه معه .
ـ صـدقت .

نازك تتأمل زكريا وتسأل :
ـ لم لا تسلم يا معلم ؟
ينهض زكريا يصافحها . يصافح سعيدا .
ـ لا تؤاخذانى . لقد سرق محلى هذا الصباح .
ـ ياخبر .. كيف يا أخى ؟
ـ اسـتيقظت فى الصباح .. وفتحت المحـل والعمال

معى واذا بنـــا نفاجأ بألواح لطزانه كانت قد وصلت الى من الجمرك قد اختفت •

ــ هل أبلغت الشرطة يا معلم ؟

ــ هــذا ما منعنى أن أحضر اليك •

نازك تقول :

ــ ما هذه المصائب التى تحدق بنـــا ؟

(٣)

ها هو صفوان المناديلى يدخل • أخـــو توفيق المناديلى عديلى • ومالك المنـــاديلى طليق المحرضـــة على الخيـــانة • يبدو أن النـــاس سمعت بالحادثة ، فجاءوا يسعون يواســـون المصـــاب •

ــ كيف حالك ياصفوان ؟

ينادينى بصوت خفيض :

ــ ماذ حدث يا يحيى ؟

لابد أن أتكلم معه بصوت مرتفع • اته أصم أو أشـــبه بالأصـــم •

ــ مصيبة من مصائب الدهر •

بصوته الخفيض يقول :

ــ قلبى معك •

وبنفس الصوت الصارخ أسأل :

ــ كيف حال أولادك ؟

ــ بخير •

صفوان المناديلى أعرفه مذ كنا أطفالا .. كان يهـوى الكرة . ويهوى العلم . وحينما دخل كلية الهندسة ووصل الى مرحلة السنة الأولى بعد الاعدادى ، لفظ الكلية من أجل عيون الكرة الصفراء . وبحث أهل الوسـاطة له عن عمل ، حتى اشتغل كاتبا مثلى . كان من الممكن أن يكون مهندسـا لو أن عقله لم يكن فى قدميه . ولم يستمر فى الكرة ، ولو أنه استمر فى الوظيفة . لاح له حزب الوفد الأمل الجديد . أكان المخبول يظن أنه سيرقى الى وزير ، أو لعله كان يبغى أن يكون مديرا لمكتب وزير ، مثلما حـدث ووصل مالك المناديلى أخوه لولا طليقته (جزاها الله كامل العقاب) .

وتبارت زوج صفوان مع أختها فى الانجاب .. فأنجبت له خديجة وعائشة وزينب . ومن الله عليه فى النهاية بالولد : فأنجب أبا بكر ، وعمر وعثمان ، لم يكن أمامه الا أن ينجب الخليفة الأخير ، غير أن أخت زوجـه كفت عن الانجاب لعلة أصابتها فأغلقت زوجه باب المنافسة .

ــ وكيف حال أولادك وبناتك ؟

ــ خديجة تزوجت كما تعرف .. حضرت أنت فرحها .. أرجو ألا تكون نسيت أنك شربت شربات فرحها . مهندس مثل زوج بنتك عفاف ، تعرفه ذلك المهندس الذى كان يستأجر حجرة فى بيت أبينا ، كان يدرس فى الصباح ويعمل فى المساء ووضع عينه عليها حتى قبلته زوجا .

ـ وعائشـة ؟

ـ لا زالت تنتظر •

ولعله أراد أن يقول : (لعل النقص فى جمالها يحول دون ذلك • غير أنه لم ينطقها) •

ـ وزينب ؟

ـ هذه حكايتها حكاية •

ـ لم ؟ •• ماذا حدث ؟

ـ تقدم اليها عريس من أبى ظبى •

ـ أبو ظبى •• أحقا •• أتقول حقا ؟

ـ أموال وراءه وأموال أمامه ••

دائما تهوى يا صفوان المـال ، تجرى وراءه مثل زكريا برهومة هو لا تفوته صفقة خشب رابحة • وأنت لا تفوتك مأمورية حكومية • كم ذهبت وجئت على حسـاب الوفد • اذا ما ترك الوفد الحكم نقلت الى قنا ، واذا عاد الوفد رجعت الى الجيزة •• أيامك كالمد والجزر يحدث فى تنقلات انسان •

ـ ولكن هناك مشكلة ••

ينظر الى بعينيه الناعستين ، وهو يقول :

ـ أتعرف المشكلة ؟

ـ ما هى ؟ •• شوقتنى •

ـ البنت رافضـة •

لم أكن أتوقع أن يقول المجنون ذلك • فابنته مثله تماما لا تختلف عنه ، تسـعى الى المـال • تركت التعليم حتى تفتح

حانوتا يدر عليها ذهبـاً ، وخابت ــ وتعلمت فن التفصـيل والحياكة حتى تفتح محلا ، غير أنها عادت من جديد يهددها الفشـل بالدنو منها .

ــ ولم رفضت ؟

ــ لانه كفيف .

(٤)

كأنهما على موعد ! .. يدخل توفيق المناديلى يصحب معه وفاء الخروبى أخت نازك زوجى . ويمتنع صفوان المناديلى عن الكلام . عادة ما لا يتكلم أمام وفاء الخروبى ، فهى وكالة أنباء متحركة . يدعى ساعتئذ أنه أصم لا يسمع أو يسمع ما يحب ويلفظ ما يكره .

أتنبه الى السيجارة العاشرة التى يدعونى اليها صفوان المناديلى فأمتنع عن قبولها معتذرا .. سوف يتحد النيكوتين مع الدم القليل ليقذفا بى فى بئر الألم .

ــ صـدرى تعب .

يشـد سيجارة من علبته ، ويكاد يدسها فى جيبه ، غير أن توفيق المناديلى يلتقط منه العلبة عنوة ، رغم أنه لم يدعه اليها . عادة ما يدخن توفيق على حساب الآخرين ، فوفاء نادرا ما تحسب ثمن الدخان حينما تعطيه مصروفه اليومى .

الصمت يخيم على الحجرة ، ويبدو أن ملكات وفاء تتعطل حينما يكون صفوان المناديلى موجـودا . هو لا يتكلم فى حضورها ، وهى تمتنع عن الكلام فى حضرته .. ينهض صفوان

يصافح توفيق ووفاء .. يقبلنى وينصرف شادا جسده النحيل .

ـ هل عرفت ؟

ها هى وفاء تتكلم .. لا تسكت أبدا .. اختفى حابس الكلام .

ـ أخى توفيق ينوى أن يتزوج .. فتاة كندية الجنسية قابلها فى لندن .

ـ وهل ستسلم ؟

(ترمقنى باستنكار) .

ـ أسئلتك غريبة يا سى يحيى .. وكيف أعرف ؟

ـ أنت تعرفين يا وفاء كل شىء .

أنا أعرف وفاء الخروبى منذ كنت طفلا .

ـ كنا طفلين معا .. بل كنا أطفالا معا .

تتذكر زوجها . . ذلك الذى يشاع أنه يصغرها بسنوات .. لقد كانت عائلة الخروبى حميمة الصداقة لعائلات المناديلى وبرهومة والشبطى .. وكان حمادة الخروبى ينوى أن يزوج وفاء من صفوان ، ونازك من توفيق . غير أن عيار صفوان فلت ، وتزوج ابنة خالته رغما عن العائلة كلها . ولم يجد الشيخ عبده المناديلى بدا من أن يتزوج توفيق من وفاء ، رغم أنها تكبره بسنوات .. وتركت نازك لتكون من نصيبى الأسود .

تضيف وفاء نيرانا جديدة الى صدرى .. بعد هذا الذى أضافه صفوان المناديلى ، لم أشعر به وقتئذ حتى أحسست بغليـــان فى قلبى يمتد الى رئتى . أيزوج المجنون ابنتـــه الى كفيف ؟! .. وهذا المثقف وفيق الخروبى يتزوج من أجنبية ؟! الأولى ستسافر لرجل غريب لا تعرفه ، وســوف تبقى خادما له العمر كله .. والثانى سيسافر أيضا لامرأة غريبة لن يتمكن أن يشكلها طبقا لارادته ، ولســوف تشكله وتشكل أولاده من بعـــده .

ترتفع الحمم فى صدرى ، وتبدأ تتقاذف وتطلق شرارتها ، غير أن وجهى البارد لا يكاد يبين فالثلوج تتكاثف عليـــه . قال لى الطبيب يوما انك ســوف تقضى على نفسك .. ان ضغطك عصبى .. اذا غضبت فلا تكتم .. انفجر ! كيف أنفجر أيها الطبيب ولا منفذ لى ؟! .. كيف أثور وأنا أعرف أن الثورة ســوف تدمر كل من حولى ؟ . ولو انفجرت يوم أكل زكريا حقوقى لكنت قد ارتكبت جريمة ، فيتيتم أولاد زكريا ، ولطلقت أخواتى من أزواجهن ، لأنهن خانعات ، ولأننا ــ وأنا معهم ــ جبنـــاء .. لو كنت انفجرت يوم ارتكبت نازك موبقاتها لكان بيتى تهدم .. وأولادى تشردوا .. ولكن وقتها أفلت صمام الأمان بعض الوقت ، وساحت الحمم وفارت من صدرى .. وهأنذا أعيش مأســاة زوج غريب فى بيت غريب مع زوجـــة غريبـــة .

ـ ألم تعرف ؟
ـ ما هناك يا وفاء ؟
ـ سى صفوان المناديلى يريد أن يزوج زينب .
ـ سمعت منـه .
ـ أقال لك انه كفيف ؟
ـ نعم .. قال .

تبدأ الحمم فى التناثر فى داخلى .. وأكاد أغيب . لمـاذا أغلى من أجل الآخرين أو من أجل نفسى ولا أطلق الغليـان بأبخرته حتى أهـدأ ؟!

ـ قال لك انه كفيف .. ولكنه لم يقل انه تجـاوز الخامسة والخمسين من العمر ، بل لعله بلغ الستين .

(٥)

ـ كيف حدث هذا ؟ ألم تكن سليما وأنت معى فى الأتوبيس ؟
ـ نعم .. كنت سليما . ولكن القضاء جاء هكذا ؟
ـ سمعت من أمين ابنى الأمر .. فاستغربت .
ـ كيف عرف أمين ؟
ـ ألا تعرف أن نازك صديقة سـوسن الهندامى .. أمـه ؟
ـ ألا تستطيع أن تقول طليقتك ؟
ـ أنا لا أريد أن أذكرهـا بالخير أو بالشر .

أما أنا فلا أمل من ذكركم .. تاريخكم عندى كله .. تاريخكم كله يبعث الغيظ فى نفسى ، وقلبى يمتلىء كمـدا ، وتثور فيه الحمم ، غير أن الوجه بارد كالثلج والأعصاب تبدو مجمدة ، لا يبدو على أننى أهتز من حوادث حياتكم ، ولو أنى أترنح من الداخل .

ـ والأولاد ألا تشتاق اليهم ؟

ـ أمين وعلى وزكى .. أراهم . أمين أكثر اخوته حبـا لى لذلك لا ينقطـع عن رؤيتى .. وعلى يرانى من حـين لآخر .. أما زكى فلا أراه الا اذا طلبته . لقد رزقنى الله سليم وداود من زوجتى الجديدة لذلك فأنا مشغول الآن بتربيتهم .

ـ وتترك الآخرين تربيهم امرأة ؟!

ـ انها امرأة بعشرين رجل .

حقـا .. تقود النسـاء الى عالم الخطيئة .. وتفرش طريقها بالورود .. وتقول لهن أهلا وسـهلا . تبدو ملاكا ولو أنها شيطان مثل الطيور التى تقـع عليها . الطيور على أشكالها تقع .. ولكنك مخطىء منذ البداية يا مالك ، لقـد كان الود بينكما مفقودا قبل الزواج ، وأصر محمد الهندامى على زواجكما ، وكان يجب عليك والفتاة ترفضك بصراحة أن تنسحب، لكنك رضخت لمشيئة خالك محمد الهندامى، وتزوجتها، وأنت طيب مثلى ، ليس لك فى الثور ولا فى الطحين كمـا يقولون . فكيف قبلت ؟ لعلك تقول لى انك كنت مغلوبا

على أمرك ! اذن فتحمل نتائج انصياعك وتبعات جبنك . لقد انتهزت فرصة موت محمد الهندامى ، وطلبت الطلاق . ولو أن ما كان بعد الطلاق كان أمر مما سبق الطلاق . قبل الطلاق استطاعت أن ترثك حيا ، وأن يدخل جيبها كل دخل لك : دخلك حينما عملت فى لبنان ، ودخلك حينما عملت فى الكويت هنأت به وهنأت به أختاها خيرية ومحاسن ، ومعهما خالد الأصغر من الاخوات البنات ، وأمها التى كانت تدبر كل شىء .. أم خالد لا أعرف اسمها الحقيقى فبنات زمان كان لهن الاسم الأصلى والاسم المستعار ثم يغيب الاسمان فى طيات اسم الابن الولد .. أم خالد .

ـ اذن أتركك الآن يا يحيى .. وألف حمد لله على السلامة .

ـ شكرا يا مالك .

أما بعد الزواج يا مالك ، فالأمر كان مخيفا . كم دبروا لك من مقالب ! المقلب الأول نقلك الى قنا ، مطرودا من مكتب الوزير . كيف توصلت الى هذا النفوذ تلك الملعونة ؟ لعل اتصالاتها المشبوهة هى التى ساعدتها على ذلك . وما كان منك الا الابلاغ على الفور للنائب العام أن أم خالد تسرق الكهرباء علنا من أسلاك الحكومة . وكان قد أعد لها الوصلات برعى طباخها يوم مات محمد الهندامى . واستمروا يسرقون دون رادع ، وبادروا على الفور وقد عرفوا أنك وراء هذه البلاغات ..

وكادوا يعرضونك للسجن لأنك كنت قد دفعت شيكا لسوسن تتسلم بمقتضاه مرتبك على بياض . فوضعت فى شيك منها ما يزيد على رصيدك وأبلغت النيابة .. لم أسألك كيف أفلت منها يا مالك ؟ .. لعل القضية لا تزال مستمرة . على العموم اذا وقع عليك جزاء يكون جزاء الذين يكتبون الشيكات على بيـــاض .

(٦)

كأنى كنت أذكر سيرة القط فجاء ينط ، كما يقول العامة، ها هى سوسن الهندامى تدخل .. ما الذى أتى بها وقد كان من شروط الصـــلح مع الشيطانة أن تقطع علاقتها بها ؟ ولكن لعل العلاقات قائمة بينهما فى السر .. فكيف عرف أمين مالك الا من أمه ؟ وكيف عرفت أمه بالحادثة الا من نازك الخروبى ؟ لعل وفاء الخروبى ــ رويتر العائلات ــ اتصلت بها ، ولو أنها لم تجر الا أياما قليلة فى تيارها الملوث ، وتباعدت بعد ذلك ، يبدو أنها لم تقطع الصـــلة .

ــ ايه يا يحيى .. بطحة بســـيطة هكذا ترقدك هـــذه الأيام ! .

ــ ربنا لا يوريك ياسوسن .. لقد كانت عصا حديد أشـــبة بالأجنة ، ودق بها على رأسى .

ــ يا حرام ! .

(أنت تعرفين الحرام والحلال !) .

ــ على العموم يبدو أن ذكائى سوف يزداد .

(تبدو ضاحكة .. انها تستمد نور طريقها من اشـعاع الضحكات التى ترنها .. ومن فورات الكؤوس التى تشربها ومن الأنوار الحمراء التى تحيا تحتها) .

ــ كيف حال ماما ؟

(تبدو كأنك لا تكرهها يا يحيى ! كيف تتستر وراء هذا الحاجز الكبير بينك وبين حمم الكراهية ؟) .

ــ لا تزال تعانى من السكر .. ظهر فجأة بعد موت أبى .. ولو أن جـدتى ــ كما يقال ــ كانت تعانى منه . ان أهم ما يقلقنى هو تدبير ممرض يومى ليدس الابرة فى فخذها أو ذراعهـا .

ــ يا حرام .. تعانى السيدة البارة .

ــ وكيف حال خالد ؟ .. وماذا يفعل فى هـذه الحرب المسـتعرة ؟

ــ أبداً . انه بعيـد عنها .. هو الآن فى مركز تدريب المشـاة بالمعادى .

ــ وكيف حال صبرية ؟

ــ مع زوجها الخائب .. يلف بها أقاليم مصر كلهـا من أقصاها الى أدناهـا .. يحملها وطفليهما فى كل عام الى بلد جـديد .

ــ هذا عمل رجل الشرطة .

ـ أقول له اتركها فى مصر فأزمة الشقق على الأبواب ·· حتى لا تضيع منكم شــقة ، فيقول اننى بأصبع قدمى اليسرى أشــير فتأتينى الشقة · مع أنه لا نفوذ له فى الشرطة ·· أنا نفوذى أكبر منه ·· أخيرا أرغمته على أن يبقى على شقة بالقرب من ميدان الجيزة ·· ورضخ ·

(تفعلينهــا ·· فأنت قادرة · تحكمين العائلة بيــد من حديد ، أما من جهة نفوذك فى الشرطة فأنا أعرفه) ·

ـ كل رجال الشرطة أحبائى يا يحيى ·

ـ ومحاسن ·· ما أخبارهــا ؟

ـ على وشك أن تتزوج ·

لا تختلف عن صفوان المناديلى ·· تدخن السيجارة بعد الأخرى ، ولا تنسى أن تعطينى واحدة ، أتريد أن تقتلنى ؟· يضيق صـــدرى فأرفض بابـــاء ·· وتستمر وهى تمتص الدخان وتنفثه فى الهواء ·

ما هذا العالم الذى يذهب ويجىء ؟ ليست لديهم مصالح عندى حتى يودونى هـــذا الود الغريب · أيكون ذلك لأنى رجل طيب ؟· أم ما هو السبب ؟ لا أنسى أبدا أن أرســم الابتسامة فوق شفتى ·· حجاب يخفى الجمر الذى فى صدرى، فأنا لا أنسى وهى تجلس أمامى أنها كانت فى يوم من الأيام سببا فى أن بيتى أوشك أن ينهار · حقا لم تكن ترفرف عليه حمامة السلام ، ولكنه كان يسير الهوينى ، والعلاقات حسنة ،

ولكن بعد أن اكتشفت المصيبة الكبيرة ، أصبحت العلاقات مشدودة كأنما تعيش مع جثة ميت لا تريد أن تدفنه ولا تستطيع أن تحيا معه . تعفنت حياتنا الزوجية عفنا يزكم الأنفاس ، وبالرغم من ذلك لا نريد انهاءها . مثلنا مثل هذه المتسولة التى تجلس فى الطريق أمام كازينو الحمام ثيابها متهرئة مفتقة متسخة ، ويكاد فخذها يبين ، وشعرها فى لون الهباب، من كثرة التراب والقذارة . يعف عليها الذباب ، بل لعله يهرب منها ومن رائحتها ، وهى لا تريد أن تتخلص من هذا المستنقع الذى صنعته بنفسها ، وفى نفس الوقت مستمرة فيه .

وتلوح لى فكرة أن أسألها عن قضية الصك الذى اتهمت فيه زوجها ، وقيدت ضده قضية، وهو مدرس محترم ، كاد يسجن فيها .. غير أنى اتردد . لا يجوز أن أجعلها تنتشى . ان هذا الصنف من النساء لا يجوز أن ينبعث فى قلبه البهجة .. ان السرور يفعم قلبه حينما يسمع مآسى الآخرين . تنهض لتنصرف وتقول بسرعة :

ـ حاول أن تنتهى من هذا الرقاد .. فبعد أسبوع سوف أتزوج .

(٧)

أخيرا يظهر ذلك الصديق الخائن .. واحد من عائلة الشبطى خرج عن مسار العائلة والتحق بكلية الشرطة ، وبلغ رتبة عالية ولكنه يوم ارتكب فعلته الشنعاء كان لا يزال ملازما أول مزهوا بنجمتيه .. « عادل الشبطى » .

يحضننى ، يهزنى ، يربت على كتفى ، أستقبله بفتور .
ــ كيف بهذه السهولة يعتدى عليك ذلك المجرم ؟
ــ حظ .
ــ لقد كنت مشهورا بقوة جسدك وعضلاتك المفتولة .. أين ضاع هـذا كله ؟
ــ هذا زمن غابت ملامحه .

أيكون هـذا الرقاد الطويل ــ بسبب هذه البطحة الرعناء سببا فى تفاعل الحمم فى صـدرى ؟ ما كادت تذهب سوسن الهندامى وتترك النار فى فؤادى تضطرم . حتى يدخل هـذا الخائن يبث لواعج الشـوق والرغبة فى الشفاء العاجل لشـخصى النبيل . سـوسن أمرهـا سهل : امرأة تدنو من الخمسين ، ولديها أولاد على وشك دخول الجامعات ، ومطلقة ، وتريد أن تتزوج .. يا فرحة شـبابك ياأختى !.. أما هـذا فيذكرنى بالمـاضى الذى أريد أن أنسـاه ، لولا أنه ترك علما له موجودا فى بيتى ، يذكرنى به . ألا يكفى العلم ويظهر أيضا صاحب العلم ؟ غير أنى أرسم الابتسـامة الباردة على شفتى الواسعتين . وأسـبل عينى الزرقاوين . لعل محدثى لا يدرك أننى أدفن فى صـدرى بركانا .

صدفة مريضة هى التى قلبت حيـاتى من حياة فاترة الى حيـاة مضطرمة .. يسكن فى العمارة التى أستأجرهـا ملك القصـاد أحد الأساتذة الأجلاء .. طلب منى ــ وأنا رهن اشارة

النبلاء — أن أوافيه ببعض القرارات التى أصدرتها الجامعة . وأفاجأ بها تدخل شقة استأجرها لها عادل الشبطى . تقع فى نفس العمارة التى يسكنها ذلك الأستاذ الجليل .. كنت فى البداية أظن أنها صديقة لها تسكن فى هذه الشقة ، ولكن بعد ادمان المراقبة ، اكتشفت الفضيحة المستترة ، ولم أستطع أن أكتم الحمم فى صدرى ، وانقلب الباطن ظاهرا ، وسقط الوجه الجليل المبتسم ليظهر وحش كاسر .

وجاء توفيق المناديلى — ووفاء الخروبى — ووفيق الخروبى واجتماعات وجلسات ومؤتمرات . وقبلت نازك الخروبى التوبة . ولكن كانت للخيانة ثمرة لا تزال تعيش فى بيتى ، ثمرة بريئة ، ماذا أفعل ازاءها ؟ ها هى تعيش وتنتسب الى ولا سبيل أبدا الى التبرىء منها .

ما هذا السم الذائب ؟ .. انه يتبسط معى ولا يعرف ما ارتكبه .. ألم تتصل به وتطلب منه انهاء العلاقات الآثمة بينهما !. ما له يحكى لى حكاياته ؟! انه تزوج . ورزق ببنت ويشكر ربه على ذلك .. ماذا كان سيحدث لو رزق بولد وجاء فى يوم من الأيام يطلب يد عديلة ؟! ..

يحكى لى أنه استقال ولا أصدق أنه استقال . ان هذا الصنف من الرجال يمكن أن يقال ، ولكنه لا يفكر أبدا أن يتنازل عن منصبه .. يحكى لى أنه افتتح محلا لبيع أنابيب البوتاجاز . يا عزيزى العقيد أنت غريب . أمركوك يسمح لك

بذلك ؟ .. يبدو أننى من النوع العتيق أفكر حسب تقاليد جـدى وجـدتى .

أنظر الى الساعة خلسـة .. الوقت يمضى سريعا وهو لا يزال يثرثر .. أليس لديه دم ؟ ألا يعرف أننى متعب ؟ أم تراه يريد أن أعود صديقه ؟ ــ هـذا رابع المستحيلات .. كيف آمن اليه مرة أخرى ، وتعود المياه الى مجاريها ؟! ان اقامة السـد العالى فى هـذه العلاقات ضرورة .. سـد بين البحر الأجاج والنهر العذب .

تدخل نازك فجـأة .

(٨)

الآن يأتى وقت العودة الى الدار .. سأدخلها وأنا أتمنى جزيرة مهجورة لا يرتادها أحد تلقينى اليها طائرة ، وأجـد فيها سكنا ومأكلا وملبسـا ، ولا أجد أحدا . سوف تنزل السكينة حينئذ الى قلبى ، وستهدأ نفسى المحتدة .

تدخل زينات .. آخر عنقود عائلة زكريا برهومة .

ــ أنا آسفة يا عمى .. يبدو أنك ستغادر المستشفى ..

ــ أهلا .. زينات .. كيف أنت ؟

أينطبق المثل فى هذه الحالة .. ويكون ختامه مسكا ؟

ــ أنا لا زلت أكرر أسـفى .

مرتبكة أنت يا زينات لأنك زرت عمك فى لحظة خروجه من المستشفى .. ولكن اخوتك الرجال أين هم ؟. أنور ومحسن

وعبد الوهاب واسماعيل بعضهم تزوج وأصبح مسئولا عن عائلة كبيرة ، ألا يبرون عمهم ؟ أم ورثوا طبع أبيهم ؟ .. ولكنك قمت بواجبك ولو جاء متأخرا .

— أستذهب الى البيت وحدك ؟

— ان أحدا لا يعرف أننى سأغادر .. كان الطبيب يحجزنى فى المستشفى خشية أن يؤثر ضغط الدم على .. ولا تعرفين كم رفع الزائرون هذا الضغط كثيرا جعلوا الدم الغليظ يزداد غلظة ، والشرايين تضيق عليه ويزداد سرعة ..

— على العموم .. هيا بنا الى الدار يا زينات .

آخذها فى يدى وأتوكأ عليها . كانت المحروسة قد أخذت ملابسى التى صبغها دمى القانى .. وأحضرت ملابس نظيفة . اذا كان الانسان يبحث عن محاسن لها فان ذلك يظهر فى كونها ست بيت تدير بحكمه وتوفر بدقة ، ومشروعاتها تدر الربح الذى لا ينتهى . ولكن مزاجها فى رجل تصفو اليه لا يرسو على زوجها .

ينتهى شارع المحطة ذو القلب المفتوح .. على جوانبه قد ارتفعت تلال من الرمال الصفراء والطين الأسود ، وطفق العمال يمدون المواسير فى داخله ، وغداً سوف يعيدون فتحه ، وينشرون أحشاءه حتى يجددوا أسلاك الهاتف ، ويضعوا الفخاخ للناس تسقط فى شراكها . فيسقط واحد فى حفرة ويتأرجح آخر . ويكسر ذراع ثالث ..وهكذا .

— أين عملك يا زينات ؟

ـ بعيد يا عمى .. بعيد .. فى مركز العياط .
ـ ولم لا تطلبين نقلك ؟
ـ يجب أن يمضى على سنتان فى العمل هناك .
ـ هـانت .

ندخل شارع سعد زغلول .. ويقابلنى النبراوى بالأحضان : ألف لا بأس عليك يا رجل يا طيب . أقبله فى وجنتيه ، ويقبلنى فى وجنتى ، وأتركه لخردواته .. انه لا يضيق من العمل . ورغم أنه تعدى الخامسة والخمسين لا يزال يدا بيد مع صبيانه . مذ كنت صبيا وأنا أشترى منه حاجياتى الصغيرة ، وهو يعرفنى رغم أن بداتنى ازدادت ووجهى تورد ، وشعر رأسى يكاد يسقط .

وكأن هناك مشهداً سينمائياً عند مدخل بيتنا ، عند مغلق الخشب . كان البطل مستقرا ، والكومبارس على أهبة الاستعداد . تقف سيارة نقل صغيرة .. أمام الباب . بها أخشاب لطزانة من نوع طويل ثقيل . ويقفز زكريا برهومة منها قفزة نمر لا تتفق مع سنه ، اذ أنه يدنو من الستين ، ويهجم بعنف على عامل كان يرتب الألواح المرصوصة عموديا أمام الدكان . ينهشه من صدره فيمزق جلبابه ، وينهال عليه لكما وضربا بالقدم حتى يكاد الرجل يغمى عليه بين يديه :
ـ ماذا حدث يا معلم ؟
يصرخ الرجل بضعف : أتسرقنى يا كلب ؟

ـ كيف أسرقك يا معلم ؟

يصرخ زكريا بصوت أجش خشنه ما يتعاطاه من حشيش. والرجل يستغرب ما يفعله معلمه .

يطلق زكريا عباراته القاتلة فيقول :

ـ ذهبت الى بيت أمك فى عزبة البكباشى .. ووجدنا ألواح اللطزانة المسروقة فى بيتك .

ويعيد من جديد لكمه وضربه وشتمه .

ـ أنا فى عرضك يا معلم .

ويرفسه بقدمه . أين أنت يا يحيى من هذا الوحش ؟ وحش يسرق ولا يسرق . لقد ضربك جلال بالعامود الحديدى ، فسقطت على الفور . أما هـذا فصحته تساعده .

ويتركه المعلم وهو يقول : هيا .. لا ترينى وجهك بعد اليـوم .

وأسمع صوت زينات بعد قليل تصرخ : حاسب يا بابا !!

يكون العامل قد أمسك بكرسى المعلم ويحاول أن ينهال به على رأس زكريا . لولا صرخة زينـات لكان الآن فى عداد الأموات ، أنقذتيه يازينات . أنقذتيه . لقد تفادى الكرسى باعوجاج بسيط عن مرماه فسقط الكرسى على الأرض ، ولم يلمس البطل .

ـ وتريد أن تقتلنى يا ابن الكلب ؟!

أين أنت من هذا المتوحش ؟ لعله الآن ساخط على نفسه،

وهو يجرى بين الحوارى المجاورة من البيت ؟ لعله يتســاءل كيف خاب مرماه ؟ .. ولا يعرف أنها صرخة زينات . لا تختلف فى وجهها عن ابنتى الكبرى ، لولا أن عفــاف ورثت عنى عينى الزرقاوين وقصر قامتى .. أما هى فقد اقتبست عينى أبيهــا السوداوين وشعر أمها الأســود الداكن وطولها الفــارغ .. ولكن كلتاهما مكتنز الجرم .

والآن . بعد أن هنأنا معلم المعلمين بعودة الأخشــاب وسلامة المعركة . أصــعد الى دارنا لأحاسب هــذه الملعونة على مجىء عادل الشبطى الى المستشفى ودخولها الى الحجرة وهو موجود . وكنا قــد أنهينا خلافنا منذ خمس سنوات على ألا ترى هــذا العادل الظالم .. ولا تتواجــد فى مجلسه .

لابد أن تستقبلنى الأختان الكريستان ، وأنا أصعد درجات السلم ، لتهنئانى بســلامة الوصول . كلتاها ورثتا المرأة فى « السمنة » . التركية التى تزوجها المعلم نظمى برهومة تاجر الأخشــاب . ملك برهومة ، وسلطانة برهومة . وها هى نجاح أيضــا معهما .. كانت بلا شــك فى زيارتهما أو زيارة واحدة منهما . ســلطانة أقرب اليهــا من ملك .. ولكن الثــلاثة بدينــات .

وثلاثتهن يعتذرن :

ـ انك أدرى بالصحة يا يحيى .

وما عذرك أنت يا نجــاح ؟ .. الدنيــا لم يعد فيهــا

خير ، هكذا كان يردد سطوحى بائع السمك •• ليدلل على أن السمك فقد خيره لأن الدنيا سقط منها الخير وهى تدور حول نفسهـا •

القبلات رسـول المحبة •

تحيطنى الأحضان المليئة ، والأيدى الغليظة ، والشفاه الكبيرة • تعبر عن فرحتهـا بنجاتى من الحـادث • ويرددن الاعتذار وزينـات صاعدة معى خطوة بخطوة •• تصافح عماتها وتقبلهن •• الود مفقـود بينهن وبين أمها ، لذلك لا تراهن الا بالصدفة • ومثلما زكريا برهومة مسـتبد ، فان جمالات العيسوى ليست أقل منه جبروتا • أنا الوحيد الذى أعيش فى عالم وحوش ، ولكن ليست صناعتى أن أروض الوحوش ، انما أتحاشـاها ، والوحوش لا تقربنى لأنى حشرة صـغيرة لا تؤذى •• وهـل يمكن أن تتحول الحشرة الى انسـان له حقوق ؟!

تزغرد ملك كأنما تستقبل عريسا وعروسة •

وتزعد سلطانة كأن طاقة القدر فتحت لهـا •

وتزغرد نجاح كأن ابنا من أبنائها قد حصل على الابتدائية ولو آن ليس لها الا ابن وحيد •

ــ تعال يا أخى لتشبع منك •

ــ انى متعب •• لحظة واحدة •• كنت فى أتون معركة •

ــ بين من ومن ؟

ترد زينـات بسرعة :

ــ بين أبى وأحد صبيانه •

ــ هيا بنا نصعد يا زينات ••

ولا يتركننى الا بالأحضــان الدافئـة مرة أخرى • هن مغلوبات على أمرهن مثلى • الأولى زوجها يكبرها بعشرين سنة والثانية زوجها عصبى المزاج يدمر من يقف أمامه ، ولا نصير لها • والثالثة زوجها بارد هادىء أكثر منى بروداً وهــدوءاً ، ومن الصعب التفاهم معه •• ينفذ ما يقنع به ، وكثيرا ما تكون قناعته بعكس الناس •

والآن نقترب من الجحيم •• ستمر زينات عليها وتصعد الى الدور التالى • أما أنا فسوف أدخلها بقدمى •• الواقع أننى يجب أن أكون هادئا أكثر من اللازم ، كزوج ناجح حتى أحصل على مرادى •• وبعد ذلك نسوى حساباتنا • لا داعى لاثارة المناقشات والا ضاع الوطر المطلوب •

(٩)

حرب الاستنزاف لا تنتهى • والحرب استنزاف يقع على الطرفين لا يستفيد منها أحد • ولو أن بينى وبين نازك الخروبى قتالا غير أنه قتال بارد لا يخرج بعيدا عن القفص الصدرى • لقد كان بيننا فيما مضى حاجز زجاجى • غير أن هذا الحاجز حينما تهشم بسبب ما فعلته فى يوم من الأيام ، وسقط ، فسرعان ما أقمنا فيما بيننا حاجزا من الأسمنت • كنا نرى ــ فيمــا مضى ــ أنفسنا فى الحاجز الزجاجى ، غير أن الحاجز الأسمنتى

حال الآن بين أن تتفاهم • هى تلقى الفكرة ، وأنا أتلقاهـا صامتا ، أو أنا ألغى الأمر فتتلقاه وتنفذه دون كلمة •

ـ الله ! • أنت جئت ؟

ـ لا ! •• أنا لا زلت هناك •

عبارة لا أنطق بها • ولا تسمعها غير أنها ترن فى صدرى:

عفاف هنا •• يا أهلا •

ـ لا تغضب منى يا أبى • لم أعرف الا اليوم ، وكنت على وشك أن أذهب اليك ••

ـ أنا لست غاضبا • • الغلطة غلطة الأم التى لم تخبر ابناءها بما حدث • • حتى الأولاد الذين يحيون فى كنفى : عين الحياة وعماد وعديلة لم تكلف خاطرها •••

تقاطعنى بصرامة :

ـ الأولاد لديهم مذاكرة ••• والطبيب هو الذى حجزك •• كان يمكنك أن تخرج فى نفس اليوم لولا أنه منعك •• ثم انهم زاروك وأنت فى الغيبوبة •

لا أرد عليها • أوجه كلامى الى عفاف :

ـ الطبيب خاف على صحتى •• قد تحدث مضاعفات •

ـ سليمة باذن الله ••

وأنطق قائلا : أريد فنجان قهوة •

تجرى وتعـده •

عفاف من عمر زينات ، غير أنها تزوجت مبكرا . بعد أن حصلت على الشهادة التوجيهية وأنجبت عصاما ووادادا ويحيى .

ليس هناك فى البيت غير عفاف وأمها .. ليس معها عصام ولا وداد ولا يحيى . حماتها ترعى لها أولادها وهى لا تفتأ ترعى زوجها . شكل مختلف عن أمها ، مثل عماتها ، ولكن تفترق عنهن فى أن زوجها ابن حلال .

تقدم لى نازك القهوة ، لا أنطق بكلمة شكر . ليس بينى وبينها كلمات من هذا النوع . الود القديم دفن منذ سبع سنوات وكان ودا مصطنعا . حصل بدلا منه نوع من مسايرة الحال حتى يقضى الله أمرا كان مكتوبا

لا تتأخر عفاف عن زوجها ، لذلك تنصرف مبكرا ، وقد اطمأنت الى عودة أبيها سالما .

تقول نازك بجرأة :

— اذا كنت تريد .. فهيا بنا قبل أن يأتى الأولاد من المدرسة .

— ولم لا يحدث ذلك ليلا ؟

— هناك فرح بنت صفوان المناديلى زينب ..

— على الكفيف ؟

— نعم .. على الكفيف .

هناك منطقة باردة فى البركان .. فى داخلى . أتكون هذه

المنطقة هى السبب الذى دفع نازك الى الطريق الشائكة ؟ كانت فى مقتبل شبابها فوارة .. حليب فائر لا يهدأ .. وأنا تحركنى المنطقة الباردة . فكيف يلتقى الحر بالبارد ؟ .. أأكون أنا الذى دفعتها الى ذلك الرجل حينما وجدت أن الاستجابة لدى أقل من الطبيعى، وهى لديها أكثر من استجابة .. اننىأمارس رغبتها معى من أجـل أنهـا تريد ، وأقضى وطرا واجبـا ، لا أكثر ولا أقل .. هى تقبلنى تحركنى .. عنيفة هى معى . حتى أمل .. الملل يحكمنى فى النهاية .. والمتعة الناقصـة تطاردهـا من التمهيد الى الخاتمة .

كنت فيما مضى لا أمارس معها هذا الواجب الا مرة كل شهر ، وكانت تستحى أن تطلب لأنها عروس .. ولكن بعـد الحادثة المشئومة صارت هى التى تحركنى فى هـذه السبيل ، كأنما تخشى أن تعود من جديد الى جريمتها . ووجدت ان من واجبى أن ألبى طلبها رغما عنى . لا أعرف سبب هـذا الميـل السلبى فى نفسى . أيكون لأنى تربيت بين أخـواتى فشـبعت من الاناث وأصـبحت ميولى متنـافرة مع الاناث أنفســهن !؟ ..

* * *

فى دار صفوان المنادیلی يقام العرس . دار مقسمة بين ورثة مختلفين .. اخوة ولكنهم اختلفوا ، لكن صـفوان كان يشكمهم مثلما شكم زكريا برهومة اخوته .. واستقر صفوان

فى الدور الأول • وبنى توفيق المناديلى الدور الثانى عنـــوة حتى يتزوج • ومالك المناديلى أصر أن من حقه ايراد الدور الأرضى • وكادت زكية المناديلى ــ أختهم الوحيدة ــ أن تخرج من المولد بلا حمص ، لكن صفوان رتب لها ايرادا شــهريا تأخذه من ايجارات حجرات الدور الأرضى لا يزيد عن جنيهين •

* * *

يجلس العريس فى حجرة الاستقبال • والنســوة يزغردن فى الصالة ملتفات حول زينب التائهة • أتأمل العريس بقرف •• كيف يبيع رجل ابنته بهذه الطريقة ؟ •• شبابها مقابل حفنة من الدينارات ستتبدد عما قريب • يبدو أن ذلك الرجل جن ، أعمته المـــادة •• أنا أكره المـــادة منذ صغرى ، لذلك فرطت فى ميراثى مع زكـــريا •• ولو أن نـــازك تدفعنى لأن أنشىء مصنعا •• وأسعى وراء الانتدابات فى الامتحانات وغيرها • لكن صفوان يعشق المـــادة منذ الصـــغر ، لعب الكرة من أجـــل المـــادة ، وجرى وراء الوفد حتى يصل الى المناصب ، وبالتالى الى المـــادة • حقـــا تباعد عن هيئة التحرير والاتحاد القومى وهذا الجديد المسمى بالاتحاد الاشـــتراكى العربى ، لكنه يبحث عن مداخل جديدة الى حبيبته • وها هو يبيع ابنته فى ســـوق ليس لها اســـم •

ويبدو أن عائلة المناديلى كلهم يسعون الى المال • فتوفيق المنـــاديلى لا مانع لـــديه فى ذلك ، ولكن ملكاته وامكانيـــاته لا تساعده فهو يركن الى الكسل ، ويريد أن يبقى بالظل •

بعكس واحد يتطوع الآن بتصوير العروس .. سليمان المناديلى ابن عم لهم .. تسلق سلم المجد بخطوات منتظمة سريعة وبلغ المنى فى أقل من عشرة أعوام ، ولم يكن يجيد شيئا غير التصوير ، حتى بلغ مرتبة مصور أحد الوزراء المرموقين . ثم ترك هذه الطريق واشتغل بالصحافة ، وأصبح يسافر هنا وهناك . ثم بدأ يتاجر فى سفرياته المختلفة ، حتى اذا دخلت بيته الآن تظن أنك فى أحد القصور . ولو أنه لم يرزق بالخلف حتى الآن بعكس عديله : عاكف الشبطى ، فقد اشتغل بصناعة البلاط والموزايكو والقيشانى .. وأخذت زوجه تنجب رغم بداوتها الناضحة بالعز ولداً وراء آخر ، وبنتا وراء أخرى . وطلبت منها يوما أختها أن تتبنى بنتا أو ولدا من أبنائها فصرخت فيها .

أميل على صفوان ، والسيجارة لا تفارق يده :

ـ لم تسرعت فى عقد القران ؟

يقول بسرعة :

ـ خير البر عاجله .

ثم يتدارك نفسه فيقول :

ـ العريس مستعجل ، يريد أن يأخذها الى أبى ظبى .

يتركنى هرباً من ضميره الذى يثقل عليه .. ويبدو الثقل فى توتره غير العادى .

وهناك فى ركن قصى ، يجلس مالك المناديلى صامتا .

هو مثلى صامت لا يتكلم الا اذا سـئل • ويفيض فى اجابته ، على عكسى •

يقولون اننى نيء مثله • أو طرى أشـبه بالأنثى • سمعتها يوما بأذنى من أحد الأصدقاء فى المدرسة الابتدائية غير أنى لم أثر • رسمت الابتسامة الباردة على شفتى الواسعتين • وفى داخلى غليان لم يكن قد تحول بعد الى حمم • لعله كان ماء ساخنا ولم يتحول الى جمر متقد • الآن أصبح جمرا حينما كبرت ودنوت من الخمسين أو تعديتها • فأنا الآن أشعر بهذا الجمر فى فؤادى يترجرج فى داخلى ، والابتسامة الباردة على شفتى •

أنتقل الى مالك أحدثه :

ـ ماذا تفعل فى هذا الركن المهجور ؟
ـ أتفرج على الدنيا •
ـ كأنك شـاعر يا أخى •
ـ أليس فى تلك الغرائب ما يوحى بالشعر ؟
ـ وكيف حالك الآن ؟
ـ أخيرا نقلت الى الفيوم •• لعل فى الأمر خيرا •

وينتهى الفرح ، وأنسى أن أسأله عما حدث له فى قضية الصـك الذى قدمته طليقته ضده ، واعتبر دون رصـيد • ولا ينسى أحد من المدعوين أن يسألنى عن هذه الضمادة التى تلتصق على جبينى باتسـاع • وأجيبه باختصار عن الحادث •

ويتحرك الكفيف ليتسلم بضاعته البشرية .

(١٠)

أستقبل وفود المهنئين بعودتى الى العمل . وأتستر بمكتبى حتى لا أستدعى التساؤل المستمر عما لحق بى ، اذ لا يجوز أن يسرب الموظف أن عاملا فى مصنعه اعتدى عليه . انما هو عامل فى مصنع زوجتى ، والحق يقال ان المصنع باسمها وما أنا الا مساعد لها ، هى المحرك ، وأنا المتحرك .

ويأتى الدكتور مجدى المرشدى يودعنا . فقد ترك منصبه السياسى الفخيم ، وسيذهب الى دبى مديرا للجامعة هناك .

ــ ومن ينتظر أن يتسلم التحقيقات بدلا منك ؟

ــ هذا زميلى الدكتور رفعت عدوى .

ــ يا أهلا وسهلا .

أعرفه .. الكبر يقتله وكان أخوه الأكبر أكثر كبرا منه . غير أن هذا دراسته قانونية والآخر دراسته فلسفية . ولكن الاثنين يعاملان الطلبة بهامة طويلة . ينظران اليهم نظرة انسان يتفادى صرصارا ، والمهم أن الأول يترقى . ويحصل على أستاذ مساعد وها هو قد حصل على درجة أستاذ . بل يصارع رئيس القسم على المنصب . أتراه يعامل الموظفين مثل الطلبة ؟ أنا شخصيا لا أذهب الى أحد ، من يريدنى يأتى الى ليتسلم التحقيقات أو الشكاوى أو الخطابات المحولة ، ولا أقوم بهذه المهمة الآن ،

يقوم بها سعيد . سعيد الذى أنقـذنى فى اللحظة الأخيرة من العامود الحـديدى الذى دق رأسى فشـجها .. ولكـن الله سـلم .

يشبـد الدكتور مجدى المرشدى على يدى . لا يفترق عن الدكتور رفعت عـدوى ، فكلاهما لا يتبسـم . ولو أن الدكتور مجدى يجود بابتسامة فى النادر . أما الدكتور رفعت فهو لا يجود بالابتسامة أبدا . ويبدو أن طبعه الدمياطى يجعله يبخـل بالود والحنـان والحب والابتسـام . كيف يعـامل أبناءه ؟ هل يحرص على ألا يدفع لهم أيضا رشفات من الحنان الوردى أو الحب الزهرى أو الابتسام الفياض ؟ ما علينا .. هل استمر على هـذا الطبع ؟ أشـغل نفسى بقصص الناس وطباعهم ، وأنسى طبعى ؟ وما فى طبعى ؟ ألست أضم أولادى الى . أقبلهم عند دخولى أو أآتنس بهم وأرعاهم بعين حانية ؟ المهـم يجب أن أغير من هـذا التفكير فى ذلك الرفعت حتى لا يثور البركان فى نفسى .. فليهدأ .. لأنى أريد أن أكون هـادئا .

أقرأ فى جريدة الصباح أخبارا عن حروب الاستنزاف . انها ليست حربا واحدة ، ولكنها فى هذه الأيام خمدت أخبارها يقولون انهم يبنون قواعد للصواريخ المضادة للطائرات ، غير أن اسرائيل تكتشف مواقعها ، وكم أبادت من المصريين المدنيين، غير أن الاصرار مسـتمر . أستقى تلك الأخبار من سـليمان

المناديلى حينما ألتقى به صدفة فى شارع سعد زغلول • انه يحسن دائما للصحبة القديمة •• لطفى الترزى وحميده الشبطى وشعبان ابراهيم بائع الملابس الداخلية • وأضف اليهم رجب أحمد صاحب المكتبة المجاورة لشعبان ابراهيم • ألفة لم تهزمها السنون • ولم يحدث فيها صدع واحد ، ينضم اليهم مالك المناديلى رغم اغترابه المتواصل • ينضم اليهم حينما يريد أن يتزود برشفة لقاء بحى الجيزة •• وشارع سعد زغلول •

يدخل سعيد ثائرا •

ـ أأنت جالس هنا فى مكتبك •• لا تدرى ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ جيل يوليو ثار فى الخارج •

ـ أتهذى ؟

ـ الطلبة اجتاحت الحرم الجامعى ، تهتف بسقوط البطل وأعوان البطل •

ـ والشرطة ؟

ـ واقفة خارج الحرم الجامعى مدججة بالسلاح •• والقنابل المسيلة للدموع • والطلاب يصرون على الخروج •• مطالبهم السلاح والحرب •• والقتال مع اسرائيل •

ـ وماذا فعل رئيس الجامعة ؟

ـ ماذ يفعل مع ثائرين ؟!••

يتأمل سعيد ويقول :

ـ الغريب أن كل الطلبة تربوا فى أحضان الثورة ، كان عمر أكبرهم ست سنوات حينما قامت الثورة وأصغرهم لا يتعدى العامين .. شربوا كلامها فكيف الآن يلفظونه ؟!..

ـعقبالك .. حينما تلفظ أفكار سى ماركس .

يزوم سعيد . ويخرج .. انه ولد مكافح رغم فقره .. يواصل دراسته الجامعية . وهو شـاب نابغة حقا ، لكن الأفكار المسممة التى ملأوا بها رأسه ، تفسد عليه نبوغه .

أتسلل من بين السرايات .. متجها الى الجيزة . لست من شـباب الثورة حتى أناهضـها . ولسـت أنتمى الى أى مجموعة ضـدها أو حتى معها . أنا كتلة من اللحم تشـحن بكهرباء تتحول الى نار حينما ترى شيئا ، ولكن النار لا يندلع شرارها خارج الكتلة ، فهى محاطة بجليد ربانى يكبت ألسنة اللهب .

أيحسب هؤلاء أن المظاهرات يمكن أن تفعل شيئا ؟.. ربما وأنا لا أدرى وكيف أدرى وأنا لم أشـترك فى مظاهـرة واحـدة .

(١١)

يزورنا وفيق الخروبى وزوجته الكندية .

واحد أيضا من عابدى الذهب . ولكن عبادته بأسـلوب علمى .. لم يتوقف عند بكالوريوس التجارة ، انما بدأ يدرس المـاجستير ، وأضاف الى علمه دراسات فى الحسابات الآلية .

لذلك بدأ يترقى فى البنك الأهلى حتى بلغ مرتبة كبيرة خلال سنوات • ولم يقيد يديه بأصفاد الزواج ، وطفق يلتقط رحيق النساء من هنا وهناك • ولعل فكرة جديدة طرأت عليه أن يهاجر الى كندا ، فأسقط دوروثى فى شباكه ، حتى يهاجر معها الى بلاد الثلج غير المشمسة •

ـ أتنوى الهجرة حقا يا وفيق ؟

ـ لم أفكر بعد •

ـ ولكن وفاء الخروبى ألمحت بذلك •

ـ وفاء تفكر حسبما يتراءى لها •

ـ أتترك يا رجل بلاد الدفء والجمال •• وتهاجر الى بلاد كلها صحارى جليدية ؟!

دوروثى لا تعرف اللغة العربية ، ولو أنها تحاول أن تتقنها •• غير أنها لا تعرف غير كلمات مبهمة مضغمة •

ـ ياسيدى الفاضل أنا لم أفكر بعد •

غير أنى أدرك جيدا مراميك • أنا درستك فيما مضى عن قرب • وأعرف أنك تنتهز الفرص باتقان • وتقتنصها بطريقة تدعو للاعجاب • على العموم ، هذه حياتك ، وأنت حر فيها • أنا أريد أن أهاجر مثلك ، ولكن الى جزيرة ليس فيها صريخ ابن يومين ، أعيش فيها وحدى •• ولا يأتى الى الطوفان أبدا • دوروثى لا تتكلم ، فأنا لا أعرف الانجليزية ، لقد نسيتها ، رغم أن البكالوريا الخاصة بى كانت فى العهد الانجليزى • لكن

ضعف الممارسة يهلك كل ما لدى الانسان من معلومات لغوية •
أما نازك فهى تدارى خيبتها فى اللغات باعداد ولائم الطعام ، وتجهيز مائدة عامرة بالخيرات •• ولم لا تعد هذه المائدة ؟ هذا أخوها ، وزوجها صاحب مصنع يدر عليه فى الشهر مائتى جنيه على الأقل • والصناعة غاية فى التواضع ، صناعة الأكياس الورقية • ولو عرف الناس ذلك لهجموا على الصناعات الصغيرة وتركوا الفقر جانبا •

الأولاد يلتفون حول خالهم وزوجته الكندية •• عين الحياة وعماد يحاولان التحدث بالانجليزية مع دوروثى بقدر استطاعتهم •• فكلاهما دخل الجامعة ويريد أن يثبت مقدرته فى الانجليزية وعديلة تتطلع اليهم بفضول •• هل ترى سأعيش حتى أراهم تخرجوا وتزوجوا وأنجبوا أولادا مثل عفاف ؟ لقد زوجت عفاف فى سن مبكرة تأثرا بالتقاليد القديمة « استر البنت مبكرا » • غير أن عين الحياة وعماد — ويبدو أن عديلة فى صفهما — يصران على استكمال الدراسة الجامعية • غريبة أن تدخل عين الحياة كلية التجارة وكان قد سبقها بسنتين زاهر ابن توفيق المناديلى ابن خالتها وفاء الخروبى ، كأن بين الاثنين اتصالات خفية لا أعرفها • أما عماد فقد التحق بالطب البيطرى بعد أن خذله مجموع الطب • وعديلة تحبو حتى الآن فى الاعدادية • هذه الشهادة التى اخترعوها ولا يعرفون أنها كانت موجودة تحت اسم الكفاءة من قبل • يبدو أنها من اختراع

ولـد من أبناء المـاضى تقلد منصـبا هاما فى وزارة التربيـة والتعليم .. ألم يكن اسم وزارة المعارف أكثر صدقا ؟

ينتهى وفيق ودوروثى من التهـام الطعام ، وآكل بضـع لقيمات وأغترف سلطة فى طبقى أستمر فى تناولها قطعة قطعة . اذ ليس المستحب أن أنهض وأدعى انتهـاء طعامى وأتركهما على المـائدة . لقد دربت نفسى منذ زمن بعيد ألا أتناول عشاء ، وأن استيقظ فى الصباح فأزدرد حبة اسبرين . ثم أتنـاول فنجانا من القهوة . وأمضى أدب فى شـارع سعد زغلول حتى أصل الى الجامعة . وحينما أعود أتناول وجبة دسمة . غير أن ضغط الدم لا يفارقنى . ودائما يدق على باب رأسى كأنما يريد أن ينبثق منها وينتشر .

ويدق جرس الهاتف ، وأسمع وفاء الخروبى تقول :

ـ صفوان المناديلى مات .

وأسرع متسائلا :

ـ متى ؟

ـ قرب الساعة الثامنة .. الجنازة غدا .

(١٢)

يقام الصوان أمام دار المناديلى .. فى شارع قريب من شارع سعد زغلول .. ويأتى أبنـاء الجيزة يعزون فى الرجل المرح ، لم يكن صـفوان يجرى وراء المـال فقط ، انما كان مرحا يجرى وراء النكتة . ولو أن النكتة والحزن لا يتفقان . غير أن حياته كانت سلسلة من الأحزان المذابة فى المرح .

ها هو ذا توفيق المناديلى يقف بجانبه أبو بكر وعمر وعثمان أبنــاء الفقيد ، وزاهر ابنه • وجاء أمين وعلى وزكى وسليم وداود أبناء مالك المناديلى • فارق كبير بين سن الثلاثة الأول والاثنين الآخرين •• ولو أنهم أخوة • ومالك يقف بجانبهم عند وداع المعزين •• ويعود ليجلس رغم أنه أكثر شــبابا من توفيق المناديلى الذى لم يجلس كأنما الربيع يهفو الى الراحة ، والخريف يضايقه الاستقرار •

ويجىء زكريا برهومة وحميــدة الشبطى وعاكف الشبطى وسليمان المناديلى • أشخاص لا أذكر منهم غير أســماء قليلة مثل لطفى الترزى وشعبان ابراهيم ورجب أحمد صاحب المكتبة القريبة من الدار •

ويأتى أيضا العقيد خالد الهندامى وأبناء خالته • يصحبهم زوج زكية المناديلى • وكان بينه وبين صفوان المناديلى ما صنع الحــداد ، ولكنه المــوت يزيل كل أنواع الشــقاق •• كانت المشاجرات تحتدم حول حقوق زكيــة المناديلى ، وتنتهى فى النهاية باتتصــار صفوان المنــايلى على زوج زكيــة ، لأنهــا تناصر أخاهــا ويعود الرجل مهزوما مكروبا يلعن زكية لعنــة لا تتفتح لها سبع ســنوات • اذ السماء لا تستجيب للدعوات المنفثة نتيجة الحقد والكراهيــة •

وأجالس مالك المنــاديلى • هــو لا يتكلم ، ولكن اذا ســألته أجاب ، واجابته دائما مستفيضة •

ـ كم عمر الفقيد ؟
ـ يقرب من الثالثة والستين •
ـ لا يزال شـابا •
ـ نحن يا يحيى على أعتاب الخامسة والخمسين •
ـ أين أنت الآن ؟
ـ نقلت الى المنصورة •
ـ ما هذا ؟ ينقلونك من بلد الى أخرى فى ظرف سنوات قليلـة ؟
ـ واحد ابن حرام يلعب بى الكرة •• لكن لا بأس فأنا الآن مدير تعليم فنى •• أترقى رغم الشحططة •
ويقرأ المقرىء •• فنسكت •
حينما يصدق بالله العظيم يعود الى مالك من جديد بعد وداع فوج من المعزين •
ـ وما أخبار ابنة صفوان تلك التى تزوجت بالكفيف ؟
ـ طلقت !! ••
ـ يا خبر !!
ـ حينما ذهبت الن أبى ظبى اكتشفت أن الرجل متزوج وله سـبع أولاد •
ـ أصحيح هـذا ؟
ـ اى والله •• وعادت وهى حامل •
ـ يا للخسارة •• ماذا فعلت بالأموال ؟

ـ يقال انها بعد أن تنجب •• سوف تحصل على نفقة كبيرة أكثر مما تحصل عليه الآن •

ويقرأ المقرىء من جديد ، ونصمت •

وحينما تنتهى القراءة ينهض مالك ليودع فوجا جديدا ثم يعود الى :

ـ وكيف حال أولادك ؟

ـ أمين تخرج من كلية الصيدلة • وعلى سافر الى خالته فى الكويت ليعمل هناك بالثانوية العامة •• وها هو زكى سيتخرج من كلية التجارة •• أما سليم وداود فلا يزالان بالثانوى •

ـ وعلاقتك بسوسن ؟

ـ انتهت والى الأبد ••

ويقرأ المقرىء من جديد •• فلا ننبس ببنت شفة •• ويختتم المقرىء آيات الذكر الحكيم ونغادر الصوان الكبير •

وحينما أصعد درجات السلالم المتآكلة فى دارى ، أتذكر قضية الصك الذى استغلته سوسن الهندامى ضد مالك المناديلى •• كيف لم أسأله عن القضية وما تم فيها ؟ •• ألا تزال منظورة أمام القضاء ؟ وبم حكم فيها لو كان قد صدر حكم ؟ ••

(١٣)

تجىء وفاء الخروبى لزيارتنا • طويلة القامة تلك السيدة، أكاد أشعر بضآلة أمامها • نازك أختها تبدو أقل قليلا من قامتى

ولكنها تماثلنى ــ وفاء ــ فى الشفتين الواسعتين ، لكن لهــا أسنان بارزة تزداد بروزا كلما تقدمت فى السن • لا تأتى وحدها انما معها زاهر المنــاديلى ويجالس زاهر ابنتى عين الحيــاة ، ويتحادثان ، وتواصل رويتر الجيزة حديثها •

ــ ألم تعرفوا ؟

أقول ضاحكا مندهشـــا :

ــ لا •• لم نعرف •

تقول بسرعة حتى لا تفقــد تفاصيل القصـــة أو تتوه عنهــا :

ــ سوسن الهندامى طلقت •

ــ تتســاءل نازك بسرعة :

ــ من زوجها الثانى ؟

أسخر من سؤالها وأقول :

ــ أمعقول أن تطلق من زوجها الأول ؟

وأتساءل :

ــ وما أســباب الطلاق يا وفاء ؟

ــ يبدو أن الفقر لاحق بالرجل •• خسر فى مقاولة من مقاولاته ، جعلته لا يفرط فى المصاريف • أتعرفون ؟ •• كان يأخذها كل شهر الى الاسكندرية • له شــقة هناك • لا يأكلون الا فى المطاعم • بل كان يصل بهما العز الى الطعام فى البيت وكانت له شقتان فى القاهرة • شــقة فى الزمالك وأخرى فى

جاردن سـيتى •• ويبدو أنه كان يود زوجته الأولى وأولاده منها ، وكانت سـوسن تغار من ذلك • ويبدو أن الخلاف دب بينهما منذ سـنة تقريبا • ولكن أخذا يؤجلان الفراق ••

وتسكت وفاء ثم تستطرد :

ـ لو طلقها وكانت أمها قد ماتت ، لكانت تلطمت تماما فسـوف تخسر شقة والدتها •• ولن تجد لها شقة لدى طليقها الثانى •• يبـدو أنه كان يصرف ببذخ ولكنـه لا يقبل أن يهب مالا •

ـ أنا أعرف رجلا مثل ذلك الرجل يدعو أصدقاءه الى كثير من الحفلات ويقيم الولائم ، بل قد يصل به الأمر أن يؤجر لهم شقة كمصيف يقضون فيه أياما •• ويرفض أن يقرض واحدا مبلغا من المـال •

تسكت وفاء ثم تقول :

ـ أنا لم آت اليوم لذلك •

وتتساءل نازك :

ـ لك غرض اذاً من زيارتك ؟

ـ نعم • جئت أخطب عين الحياة لزاهر •

تعترض نازك :

ـ ماذا تقولين ؟

ـ هل تمانعين ؟

ـ أنا لا أمانع •• ولكن هل لدى زاهر الشقة المناسبة •
أنت تعرفين أن خلوات الشقق فى ارتفاع مستمر • وكل الملاك
الآن لا يؤجرون شــقق العمارات التى يبنونها انما يبيعونها •
تقول وفاء ضاحكة :
ـ الشقة موجـودة •
ـ أى شقة تقصدين •• أتريدينه أن يقيم معك ؟!
تنهض وهى تقول :
ـ لا يا نازك •• شـقة وفيق •• سـيهاجر أخيرا الى
كندا •• أعد أوراقه وباع سيارته ••

(١٤)

نضطر للخروج معا ، أنا ونازك ، فمنذ أن فارت الحمم
من قلبى ، ووضـعت شروطى لاسـتمرار أن ينبت الوادى
بالاخضرار ، وقبلت الشروط ، ونحن لا نخرج معا • حتى وأنا
متجه الى المصنع الصغير فى ساقية مكى ، لا تذهب معى • وقد
تتواجد بالصدفة هناك ، فتستقل سـيارة أجرة وحدهـا ،
وأنا أتمهل وأبقى فى المصنع ، وتعود بمفردهـا ، وأنا أتمشى
فى الطريق الوعرة فيما بين ساقية مكى وشارع سعد زغلول •
طريق مهدمة حقـا ، مليئة بالأكواخ والبيوت القديمة المتسخة
ذات اللون الكالح ، ولا تعرف ثغرة فيهـا الا أن تكون بركة
ماء ، يتساقط الباعوض على صفحتها ، أو يتمشى على وجهها •
وهذه الطريق أخف وطأة على قلبى من السير معها أو ركوب
سيارة أجرة بصحبتهـا •

وجـه الاضطرار أن توفيق المناديلى قد أجرى عمليـة فى عينيه . ولا يعقل أن أتركها تذهب وحدهـا ، وأدخل أنا بعدهـا ، وتخرج عائدة الى البيت ، ولا أنصرف معها أو أذهب وحدى قبلها أو بعدهـا فى يوم آخـر . وأنا لا أريد كثرة الهمس حولى . يكفى أن أثناء علاقتها المشئومة مع عادل الشبطى كان الهمس قـد أصبح صوته كصوت خليـة النحل ، طنين لا ينقطع .. وأنا لا أدرى . هى تعرف جيدا أننى ما أبقيت على العشرة بيننا ليس الا رأفة بالأولاد . والحقيقة أضيفها الى نفسى أننى كنت سوف أتشرد دون زوجة . قديما كانت أمى ترعانى ، ثم أصبحت أخواتى ، ثم جاءت هى ، ولم أتعـود أبدا أن ألبى طلبا لنفسى . كنت هارون الرشـيد ، ولو أن جيبى كان خاليـا .

وفى بيت توفيق المناديلى نسمع أخبارا جميلة . أن البنت الكبرى وردة على وشك أن تتزوج عريسـا « لقطة » كمـا يقولون ، مقاول ومهندس والمـال يجرى فى يديه . وتتسائل كما يبدو من عينى نازك ــ على ايه ؟ . كانت تملك ذلك الضب الفارغ ، والشعر الأشعث ، والوجه الأسمر غير الجميل . غير أننا نبارك لها . كما نسمع أخبارا أخـرى أن البنت الصغرى زهرة سـوف يتقدم آخر لخطبتها ولو أنه ليس فى مستوى عريس وردة .. ولكن الدنيا أرزاق .

ــ أصلع ياعمى .

اتحسس شعرى الخفيف وأقول :

ــ ماله ذو الشعر الأصلع ؟

ــ وطويل جــداً •

ــ الطول ليس عيبــا •

ــ ولا أعرف طباعه •

ــ ســوف تتعرفين عليها •

أما زاهر فقد ترك البيت من زمن ، وعاش فى بيت خاله• وهاجر خاله وفيق الى كندا مع دوروثى • ويبدو أنهما لا ينويان أن يعودا • قامت مشــاكل بين زاهر وصاحب العمارة ردحا من الدهر ، ثم تمكن أن يصفيها • وتزين بيته الصغير عروستنا الحلوة عين الحياة ابنتى • تلك التى تمكنت من الحصول على البكالوريوس • وتمكنت أن ألحقها بكليــة الحقوق لتعمل هناك • وحاولت أن أوسط الدكتور رفعت من خلال اتصالى به فى تحقيق مع أحد الأساتذة •• لكن بخله الدمياطى العتيد جعله يزوغ منى • ولجأت حينئــذ الى العميد فأسرع يكتب خطابا للقوى العاملة يطلبها بالاسم • وهى مشغولة الآن بين بيتها وعملهــا وطفلتها الصغيرة • اذا كانت عين الحيــاة قــد أخذتهــا منا الزهرة الصغيرة ، فما بال عفاف والعفاريت الذين يدورون حولها ؟ هم كواكب وهى الشــمس لا تستطيع أن تخرج عن مدارهــا وهم فى الفلك معها يسبحون •

بعد فوران الحمم من صــدرى ــ لأول مرة وآخــر

مرة ـ أصبحت نازك تخلد للصمت ، وكانت من قبل تتكلم كأنها لا تعرف وصلات للصمت • لذلك لم تعلق كثيرا على زواج وردة وزهـرة •

غير أنها تقول :

ـ الحمد لله أن الأبنـاء كلهم قد تخرجوا • وها هو عادل قد انتهى من بكالوريوس الطب البيطرى ، ووجد أصدقاء والده له عملا فى مزرعة فى الحوامدية •

وتقول وفاء بسرعة :

ـ والله بركـة •

ـ لم يبق الا عديلة ، وسـوف تدخل الجامعة العـام القادم •• أما توفيق المنـاديلى فلم ينبس ببنت شفة • أزاح همومه مبكرا وسكت • كان يخشى أن يكف بصره ، ويصبح لزاماً عليه أن يقوده صبى أو عصـا •

وأقول له ضاحكا :

ـ لا صبى ولا عصـا ، استعمل كلبا •

ويضحك قائلا :

ـ لولا أنه نجس لاستخدمته •

(١٥)

فى الليل يهدأ كل شيء فى شارع سعد زغلول • أمشى الى البيت دون زحام ـ كل الحوانيت والمحلات مقفلة ـ عائدا من المصنع الذى يشغلنى هذه الأيام ، وتعود معى نازك • بدأت العلاقات تتوثق بسبب هـذا المصنع الصغير • وتركتها تتوثق

ولو أنها فاترة • ولا يوجد الا بائعو الخيار والفجل والجرجير وبعض بائعى البصل الجوالين • وكذلك بائعو الليمون ينادون على بضاعتهم •• كأن الليمونة هى مقياس الأسعار • بدأت المائة بقرش صاغ • وأصبحنا الآن لا نسمع عن الليمونة الا بعشرة قروش • سلسلة الحروب المستمرة أنهكتنا • والأموال التى كانت تحرقها أصبح لزاما علينا أن ندفعها من لحمنا الحى • وكان آخرها حرب أكتوبر ، وحرب الثغرة الصغيرة التى لا تحسب من ضمن الحروب ، كأنها بقايا حرب • أو لعل العسكريين يعتبرونها امتدادا لحرب أكتوبر •

أسير فى الشارع الطويل ، وأتأمل حياتى • حصيلة تلك الحياة الهادئة • وأجد أنى راسب البكالوريا القديمة حققت أكثر مما حققه صاحب مغلق الخشب • لقد فشل أنور ابن زكريا فى الحصول حتى على الابتدائية • غير أن والده كافأه على ذلك بأن فتح له مغلق خشب فى شارع الصناديلى • ومحسن وعبد الوهاب لم يتمكنا من الحصول على التوجيهية ، فعمل أحدهما موظفا فى الحكومة والآخر شارك فى بعض المقاولات الصغيرة • غير أن اسماعيل ابنه الذكر الأخير بز الجميع وتفوق فى دراسته ، وأصبح فخر أبيه وأمه ، وحصل على الدكتوراه فى الطب ، ولكن أخته زينات لم تتعد ليسانس الآداب قسم الاجتماع ، فالتحقت بوزارة الشئون الاجتماعية فى مديرية الجيزة •• وألقى بها المسئولون ـ أنثى لا حول

لهـا ولا قوة ـ فى أحد المكاتب الاجتماعية فى مركز العياط .
ولو أن يد الرحمة شملتها ، فاشتغلت فى وحدة أم المصريين
الاجتماعية القريبة من منزلها ، وتستعد الآن لأن تزف الى
ضابط شرطة . أما ملك برهومة فقد أنجبت أولادا أذكيـاء
حقـا ، لم يخرج واحد منهم عن كلية الطب أو الصيدلة ـ
بعكس سـلطانة برهومة ـ فقد تحول أبناؤهـا الى كليـة
الهندسة .. وكانت تقول : خمسة وخميسة فى عين العدو .
خمسة مهندسين وصلى على النبى . أما نجاح فكان زوجها من
المؤمنين بتنظيم الأسرة ، فأنجب منها طفلا واحدا .. كان متعجلا
فى كل شىء ، وتعجل الهجرة الى الخارج ، فذهب الى لندن مع
الشـباب ، وأرسـل الى والـديه أنـه سـيقيم فى لنـدن
ويستكمل دراساته ، وانقطعت أخباره تماما . فهل نقـول
انهـا لم تنجب ؟

أما أنا فقد تفوق أغلب أولادى فيما عـدا عفاف التى
اكتفت بالثانوية العـامة ، وتزوجت . وعديلة التى أتذكرهـا
فتضطرم الحمم فى صـدرى ، وتكاد تفـور ، لولا لطف الله
الذى منحنى ابتسـامة ثلجيـة هادئة تغطى على الفـوران فى
الداخل . عديلة ، التحقت بكلية العلوم ، تبغى أن تكـون
عالمـة .. واذا ما وزنا مـا فعله زكريا بأبنـائه وما فعلتـه
بأبنائى ، فان كفتى راجحة لا شـك .

ـ أليست الدنيا حظوظ حقـا ؟

تتكلم نازك ، ونحن فى الطـريق الى الدار ، وأسـأل باختصـار : لم ؟

تشرح وجهة نظرهـا قائلة :

ـ تتزوج وردة من رجل غنى فعـلا رغم أنها لا تتمتع بأى نوع من الجمال •

أقول لها وجهة نظرى :

ـ المـال والجمال لا يجتمعان فى بعض الأحيان •

أنطق الكلمات بسرعة ، كأنما لا أبغى أن أسـتمر فى الحديث معها • أضن عليها بالحديث كأنى أعذبها •

(١٦)

يأتى زاهر وعين الحيـاة بناء على موعد سابق • لقـد استولى المصنع الصـغير على كل كيـانى • حتى أنى أذهب اليه بعد الساعة الرابعة • أنا لا أنام سـاعة القيلولة •• كأن مرضى ضغط الدم لا ينامون عصرا ، ولا أتركه ـ ومعى سعيد مرؤوسى فى الجامعة وفى المصنع حتى تبدأ الساعة تشـير الى العاشرة • وأتمشى من ساقية مكى الى شارع سـعد زغلول بخطوات وئيدة حتى أبلغ البيت الحادية عشرة •• طلب منى الطبيب أن أنقص وزنى الزائد • ولا سبيل الى ذلك الا المشى رغم أن السير فى تلك الطريق يؤلم ، فقد تصطدم القدم بحجر ، أو تسقط فى ثغرة ، أو تحتك بحجر صلد •

يقول زاهر مبادرا :

ـــ باركوا لى •• لقد استلمت عقدا فى سلطنة عمان ••

ـــ معقول ؟ •• ألف مبروك •

أنطقها بهدوئى المعتاد ، وأضمه الى وأقبله ، وأنظر الى نازك كأنى أقول لها « خذوهم فقراء يغنيكم الله » •

أسأله : وكيف وصل اليك العقد ؟

ـــ بالصدفة يا عمى •• التقيت بصاحب الشركة العمانية فى احدى المصالح الحكومية • كان يبحث عن محاسب جيد •• قلت له : وما رأيك فى ؟ فقال موافق •

ـــ أبهذه السهولة •• وماذا يحدث بالنسبة لعين الحياة وزهرتكم الصغيرة ؟

ـــ سوف يؤثث لى الرجل شقة فى العاصمة •• وسوف تكون سكنا عائليا • وسوف تلحق بى عين الحياة والغالية بعد شهر تقريبا •

ـــ ولو أنى لا أشجع الهجرة ـــ ربما لأنى لم أهاجر ـــ لكن على بركة الله •

(١٧)

يأتى سعيد حاملا أوراقا لتوقيعها •• يبدو صامتا فقد مرحه •• لقد اعتقل عدة شهور ، وأخرج ليؤدى الامتحان وتاب عن الشيوعية والماركسية واللينينية والماوية • وأصبح يسير بجانب الحائط لا يروى شيئا عن ذكريات المعتقل ، انما يعارض فى نتيجة امتحان البكالوريوس • يدعى أنه رآها جيدا جدا

فى كشوفات اليوم الأول ، مما يسمح له بأن يلتحق كمعيد بالكلية • غير أنه حينما ذهب ليستخرج الشهادة وجد أن درجته جيد • وأصر على أنه رآها جيدا جدا • وذهب ليتفحص الكشوف من جديد ، فوجد أمام اسمه جيد • كيف حدث هذا ؟ •• وكيف يتسنى له أن يثبت غير المسطور أمامه ؟ •• لا يعرف •• وتغير وضعه فى الجامعة من موظف يحوى ملفه شهادة متوسطة الى موظف يعتمد فى سيرته الادارية على شهادة عالية • وتغير من كادر الكتابيين أمثالى •• الى كادر الاداريين • ولو أن علاقتنا لم تنقطع • واستمر يعمل معى •• رغم أنى أتوجس من علاقتى به •• فقد أصبح مشبوها ، لكن ضعفى يمنعنى أن أقول له : امض عن طريقى •

أوقع الأوراق — تخص مناقصات لبعض الشركات — ويمضى سعيد •• الحزن يخيم عليه بخيمة سوداء •• كان يمنى نفسه بمستقبل باهر ، غير أن عقيدته السخيفة حالت دون ذلك •

تجىء وفاء الخروبى تدعونا لحفلة زفاف ابنتها وردة فى شبرد •• ويصدر السؤال منى سريعا :

— وما أخبار زهرة ؟

تنكس رأسها وتقول :

— أبدا •• رفضت الخطوبة •

— كيف ؟

— لم يعجبها العريس • عابت عليه أنه أصلع فى البداية •• وفارق السن بينهما كبير • وأنه أطول منها رغم أن طولها لا يقارن •• يا حبة عينى ، ثم غاصت فى أمور أخرى • تبينت أنه بخيل • دعاها يوما الى السينما ، وخرجا من البيت سيرا على الأقدام ، ورفض أن يركبا سيارة أجرة ، ثم دعاها لركوب الأتوبيس ، ودخل الى الدرجة الثانية ورفض أن يشربا بيبسى كولا أو كوكا كولا داخل السينما • ولما طلبت منه أن يشترى لها لبا ، وعدها ، ثم عاد بها بالأتوبيس مرة أخرى دون أن يبتاع اللب المطلوب •

أضحك كثيرا •• لأول مرة •• أضحك منذ زمن •

وأسمعها تقول :

— تدعى أنه لا يرتدى الا جوربا واحداً لا يغيره ••

وأغرق من جديد فى الضحك ، ومعى نازك وعديلة • أما عماد فكان مشغولا بالمزرعة الجديدة بالحوامدية • ولا يعود الا متأخرا • كانت التجارة فى الزمن الماضى معينا للثروة ، وأصبحت الشهادة والعمل الحر مصدرين للحياة فى الوقت الحاضر •

وتستمر وفاء فى حكايتها :

— لقد أحيل خالد الهندامى الى المعاش •

— ياه ! • لا يزال صغيرا •

— هكذا ضباط الجيش يحالون الى المعاش مبكرا •

وأيضـا أحيل زوج صبرية الهندامى الى المعاش .. وكان لواء شرطـة .

ــ سوف يعانى خالـد فى البحث عن عمـل .. فى أيام المغفور له كان الضابط يحال الى التقاعد ويتسلم عمله فى احدى الشركات المؤممة .. أما الآن فانه يحال الى التقاعد ، وعليه أن يبحث عن عمل .

ــ يا أخى .. لا تخف عليهم .. أخته سوسن الهندامى لها نفوذ كبير فى جميع الجهات .

ــ غريبـة .

ــ لقد اشترى زوج صبرية سيارة أجرة .. ويعمل عليها ليل نهـار .

ــ لواء شرطة .. ويقود سيارة أجرة !!

(١٨)

يرن جرس الهاتف رنينا متواصلا .. مكالمة من الخارج أسرع اليه ، وأتناوله بلهفة :

ــ من ؟

ــ أنا وفيق الخروبى يا يحيى .

ــ أهلا .. أهلا .. كيف حالك وحال دوروثى والقمر الصـغير ؟

ــ عال .. عال .. لقد اشتغلت هنا فى أحد البنوك ، ولو أنى أنوى أن أفتح لى مكتبا للمحاسبة .

ــ مبروك ياسـيدى .
ــ من عندك ؟
ــ عندى .. نازك .. وبالصدفة وفاء ..

يتحادثان مع أخيهما المهاجـر .. بخيل حتى فى كتابـة الخطابات . لا أعرف كيف يتمكن الشح من انسان لهذه الدرجة كون ثروة فى مصر من الاقتصـاد فى المصروفات ، ولعله بدأ يكونها بالدولار الكندى . أنا لا أطيق أن أحرم نفسى من أى متعة . أشترى الفاكهة واللحوم والخضراوات لبيتى . كان يكره اللحم ، لأنه يؤدى الى الترهل .. فكان طويلا ولعله لا يزال دون أى بدانة . وكان يكره الحفلات ، فهى مكلفة دون طائل . كنز كثيرا من المـال ، لكن هل هذه هى الحياة ؟

ويرن جرس الهاتف مرة أخرى ، فأرد بسرعة :
ــ من ؟
ــ أنا زاهر ياعمى ..

ريح الأحباب تصلنا تباعا .. أشتاق اليك وأشتاق أكثر الى عين الحياة . أين هى ؟ .. بجانبى .. لا أريد أن أواصل الحديث لأن المكالمة جد غالية ــ كما أعرف ــ لذلك أسـلم السماعة لنازك . وتسلمها بدورها الى وفاء .. وعديلة .. ليس أكثر من السلام . ولا تنسى وفاء أن تنقل اليه الأخبار قائلة :
ــ زواج أختك وردة يوم الخميس القادم .

لقد حضر عقد القران قبل أن يســافر ، لكنه لم يحضر حفل الزفاف .

(١٩)

زواج الأحباب مستمر لا يتوقف ، ما نكاد ننتهى من زفاف وردة الى عريسها المقاول المهندس ، حتى أفاجأ بعدها بأسبوع واحــد بالكهارب تمــلأ العمارة الكالحــة .. من أولها الى آخرها .. الابنة الوحيدة دلوعة زكريا سوف تتزوج . زينات أخيراً ســوف تتزوج وتفــارق البيت . ولم لم يقم المــأفون زفافها فى أحد الفنادق مثلما فعل عريس وردة ؟. أهو فقير ؟.. وأين سيقيمه ؟ فوق السطوح ؟!

ـ ماهذه الكهارب يا زكريا ؟

ـ سوف تزف زينات يوم الخميس .

ـ وتقيم الزينات من يوم الاثنين !؟

ـ بنتى .. حبيبتى .

ـ ألف مبروك .

ـ سوف أحضر اليوم لدعوتك أنت وأسرتك الكريمة .

ـ ومن العريس ؟

ـ ابن حبيبك حميده الشــبطى .. ضابط شرطة .. نقيب .

ـ أعرفه ..

تتشابك العائلات فى الجيزة ، لعلها المصالح التجارية ، أو لعله الود القديم ، أو لعل القلوب تتقـارب من بعضها البعض دون أن تدرى • كيف نلمس خفقات القلوب ؟ اذن ذلك يتم فى الخفاء ، ثم يظهر فى مناسبة طلب عقد القران ، وقد لا يظهر أبدا لأسباب خارجة عن ارادة المحبين •

وتقف سيارة الدكتور اسماعيل ، وينزل منها • ويربت على كتفى ، وألتفت اليه ، فيأخذنى بالحضن ضاحكا :

ــ لم لا تمر على فى عيادتى لأقيس لك ضغطك يا عمى ؟ أيمكن أن يكون هذا الحنان الدافق نابعا من هذا الجدب ؟ أيمكن أن ينجب الشـيطان ملاكا ؟•• ان الدكتور اسـماعيل وزينات فصيلة أخرى غير أولاد زكريا برهومة الآخرين •

ــ يابنى ان عيادتك مزدحمة •

ــ يا عمى •• يمكنك أن تمر فى ساعة متأخرة •• أنا أراك عـائدا من مصـنعك السـاعة الحادية عشرة ، العيادة فى طريقك •

يقاطعه زكريا بوحشية ، ويلقى نكتة قاسية :

ــ وهل ستكشف عليه يا اسماعيل بلا مقابل ؟

يقول الدكتور اسماعيل عبارة تكاد الدموع بعدها تنبجس من المـآقى :

ــ لا يا أبى •• سوف أعطيه روحى •

أضمه الى ، وأنا أخفى الدموع فى كتفيه •

(٢٠)

يأتى على الانســان حين من الدهر ، يكون فيه وحيدا • وبعد ذلك تتقاذفه أمواج المجتمع ، ويســبح فى بحاره ، غارقا من قمة رأسه الى أصابعه فى ضجيج الناس ومشاكلهم • وفجأة يأتى الدهر مرة أخرى بالوحدة والمرارة •

منذ زمن بعيد تفرغت عفاف لبيتها •• وها هى عين الحياة تنضم الى حزبها ، بل وتسافر مع بعلها الى سلطنة عمان • ويأتى عادل فى يوم ليقول :

ــ أنا مسافر الى السعودية •• سوف أعمل فى مجزر آلى بمكة طبيبا بيطريا للمجزر •

ــ هكذا دون مقدمات ؟

ــ يا أبتى اننى أتبع حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « استعينوا على قضــاء حوائجكم بالكتمان » وقد كتمت أمرى حتى تحقق •

ــ على بركة الله يا ولدى •

ويسافر عماد ولا تنقطع خطاباته •• ابن بار حقا بوالديه • يصف لنا المجزر وزملاءه وعلاقاته ، وكيف أنه بعــد أن ينتهى العمل يتفرغ للرياضة• فلقد زاد وزنه بسبب الأرز الكثير، ويريد أن يعيد حجمه الى قالبه القديم ، فيبدأ فى ممارسة رياضة الجرى

وحمل الأثقال • ويدعونا لقضاء شهر أو شهرين فى مكة لنعتمر أو نحج •

تكتب نازك لابنهـا أن يدعوهـا للزيارة ، وأرفض أن أذهب ، لا لأنى لا أريد أن أكون معها ، ولكن لأن ضغط الدم زاد فى تلك الأيام بشكل بشع • حتى قال لى الدكتور اسماعيل :

ــ عليك بالمسلوق يا عمى •• واياك من اللحم السمين •

يحرمنى من أكل الضـأن والكندوز •• ويصمم أن أتناول شريحة واحدة كل أسـبوع من لحم البتلو ويضع نظاما صارما لا أتعداه • ويوصينى بالمشى المنتظم المرتب • لا أن أتكلم مع هـذا قليلا ثم أخطو خطوتين لأتكلم مع آخر • كان يشاهدنى العفريت وأنا أتمشى فى شارع سعد زغلول •

والآن لا يوجد فى البيت غير نازك وعديلة حتى تطلبنى عفاف يوما بالهاتف وتقول :

ــ صفوت يا أبى سيسافر فى بعثة لدراسة المـاجستير •

ــ أمعقول هذا ؟ وماذا ستفعلين ؟

(٢١)

أستأنس أن تأتى عفاف لتعيش معنا زهاء سنة أو سنتين حتى ينتهى صفوت عبد الواحد ، زوجها ، من دراساته • غير أن عفاف لم تعد منا • ارتبطت ببيت زوجها ، وارتبطت بأهله • لم تعد الابنة البارة قادرة على أن تترك عمها عبد الواحد وأم

صفوت وحدهما • ولم تقبل أن تحرمهما ــ وهما في هذه السن المتقدمة ــ من رؤية أحفادهما اليومية ، وآثرت أن تبقى في دارهــا في الدور الثاني وحماهــا وحماتها في الدور الأول ، يأتنسان بها وبأولادهــا •

ويمضى صفوت الى يوغسلافيا للدراسة •

وتبقى عفاف في البيت ترعى شئون بيتها • وعم عبد الواحد يذهب الى دكان بيع الدقيق ليواصل كفاحه الذى لا ينتهى • وأم صفوت تنتظر عودة الأولاد من المدرســة أمام نافذة من نوافذ الدور الأول تطل على الشارع الضيق •

ونازك تستعد لأداء العمرة ، وتتحجب فيقع ذلك في نفسى موقعــا حسنا • وأتقرب اليها وأخرج معها لأول مرة منذ زمن، ونفسى تفيض بالبشر حتى تشــترى احتياجاتهــا من الملابس الجديدة •• ولو أن في الحلق غصة ، ليست منها ، ولكن من هذا الزمن المتقلب • لقد دخل صناعة أكياس الورق كثيرون • عرفوا الطريق وكانوا أكثر منى سرعة في اقتناص المناقصات في دواوين الشركات • وبدأت الصناعة تبور خصوصا أتنى بطىء الحركة، ودفعات نازك لى لم تعد مؤثرة • وكدت أفكر في أن أقفل المصنع وأرتاح خاصة بعد أن آثر سعيد أن يدرس المــاجستير ويتفرغ للدراسة • فاذا كان ــ كما يظن ــ المسئولون قد خفســوا بدرجاته ، فانه يجب أن يثبت لهم أنه سيحقق ذاته دون الاعتماد

على هباتهم • ويبدأ يسلخ نفســه من العمل الليلى للمصنع ليتفرغ للمحاضرات والأبحاث •

(٢٢)

أخرج من عيادة الدكتور اسماعيل برهومة بشارع المحطة بعد آن عادت الى الشارع احشاؤه • وتمنيت من الله ألا تجرى له عمليات أخرى • ولو أنى مدرك أن بعد خمس سنوات سوف يكلف مقاول جديد باعادة ما فعله المقاول القديم • وأصادف عادل الشبطى يتجه الى سيارته •

ــ أهلا يا يحيى •• كيف حالك ؟

ويستطرد متسائلا : وكيف حال نازك ؟

يضغط سؤاله على صــدرى ، فتنفجر الحمم فيه ، غير أن الابتسامة الباردة تقف حاجزا أمام الفوران •

ــ سافرت الى مكة لأداء العمرة •• وقد تبقى لتحج •

ــ ان بيننا وبين الحج شهوراً كثيرة •

ــ نعم •• ستبقى هناك مع عماد ابنى •

ــ والله •• ألف مبروك •• منذ متى وهو فى السعودية ؟•

ــ يدخل الآن عليه حول تقريبــا •

ــ غريبة •• لم أسمع بذلك •

ــ والأولاد الآخرون بخير ؟

(ألا يسأل عن عديلة ؟ .. أم يتجاهل فعلته .. ولعله لا يسأل حتى لا يفتضح أمره) .

ـ وكيف حال المصنع ؟

ـ فى طريقه الى التصفية .

ـ مثلى . لم أعد أجد موزعين لأنابيب البوتاجاز . لذلك قررت أن أقفل المحطـة . وأبقى فى البيت .. ألا تأتى معى لأوصلك الى البيت ؟

ـ لا . شكرا . نصحنى الطبيب أن أمشى كثيرا .

ويمضى الى سيارته وأمضى الى حتفى .. أشعر بالغليان فى جوفى .. وأشعر بالبركان ينفجر . كلما التقيت بهذا الرجل تعاودنى الذكريات المرة .. الغريب أنه لا يتجاهلنى ويتقرب الى كأنما لم يكن بين زوجى وبينه علاقات آثمة ! أيعتقد أننى أبله الى هذه الدرجة ، أو ساذج لا أدرى عما اقترفه شيئا .

وتضربنى الآلام فى رأسى ، وأسقط فى غيبوبة . يستنجد الناس بأقرب طبيب . ولم يكن غير الدكتور اساعيل ابن أخى . يحملنى فى سيارته الى البيت .

يدخل الى عديلة يحملنى هـو وعمال زكريا . ويحقننى حقنة تخفف من حدة البركان . ويمضى لشراء الدواء اللازم .. ويلقى تعليماته على عديلة الطالبة بالسنة الثالثة بكلية العلوم .

سـوف تأتين يا نازك من عمرتك ولن تجدينى . سـوف أرجل الى حيث النور والدفء وراحة البال والهدوء . سـوف تخلعين ملابس حجك البيضـاء وطرحتك البيضاء ، وسـوف ترتدين أخرى سوداء . وملابس أكثر منها قتامة .

لم تنم عديلة . هناك دواء كل أربع ساعات .. ودواء آخر كل ست ساعات . وأنفاسى أمامها مضطربة . ودموعها لا تتوقف . أتحرك بصعوبة . تأخذنى فى أحضانها حتى أتناول الحبة بعد الحبة . تمضى أياما سـاهرة بجانبى . تخرج لتشترى لى أرنبا صغيرا . تطعمنى فى فمى .. تدفع الطعام ببطء كأنها تدلل طفلا مشاكسا .. وأشعر بها قد كبرت الطفلة الغريرة قد ترعرعت . أحـاول أن أتملص من اصرارهـا على أن ازدرد الطعام غير أنها تصر قائلة : حتى تصلب عودك يا أبى .

الحلوة تقول يا أبى . ظلمتك يا ابنتى . أيمكن أن تكونى ابنة رجل آخر ، وتعاملينني بهذا الحب ، وذلك الحنان ، وتلك المـودة ؟ !!

ـ ألا تذهبين الى كليتك ؟

ـ أنت أهم عندى من الكلية .

أأكون أنا الذى حرمت نفسى من هذه العاطفة الجياشـة بسبب أوهام عشش فى ذهنى ؟

ـ فى أى قسم تخصصت يا عديلة ؟

— سـوف أتخصص فى الهندسـة الوراثية .. علم جديد آفاقه جديدة ..

(أتريدين أن تثبتى أن خلاياك مطابقة لخلاياى . أم لعلك تريدين أن تتأكدى من العكس فتكتشفى سبب التجهم المستمر فى وجهى كلما ألقاك ؟) .

— ولكن فى أى مصلحة سـوف تعملين يا ابنتى بهذه الهندسة الوراثيـة ؟

— أنا سأعمل فى الكلية ذاتها .. سأعمل معيدة .

— وكيف ضمنت أنك سوف تكونين معيدة ؟

— بنات وأبناء يحيى نظمى برهومة يعرفون طريقهم .

— ياحبيبتى .

أنا أسبل عينى يا ابنتى لأننى أبكى ، ولا أريدك أن ترى دموعى ، أريد أن أغسل بها أوهامى . أترانى ظلمتك ؟ انك حتى لو لم تكونى ابنتى لمـا تأخرت يوما أن أتخـذك ابنتى حبيبتى .

تمت

الرياض فى ٢٠/١٠/١٩٨٨م

كتب للمؤلف

لقمة فى يد النساء	١٩٧٧
بــذور	١٩٨١
وقائع غير مرئية تحت الشمس	١٩٨٥
لألىء الزمن الخالى	١٩٨٦
خــذ الحــذر	١٩٨٦
غالبا ما يتفتح الزهر	١٩٨٨
السفر الى زمن ميت	١٩٨٩

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩/٩٤٦٢
الترقيم الدولى ٠ ــ ٠٥٢ ــ ٤٧٢ ــ ٩٧٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر/٣ ميدان الموسكى بجوار جامع الرماء